عبد الحميد كشك

مبادئ أقام عليها الإسلام المجتمع الكريم

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين



مبادىء

أقام عليها الإسلام المجتمع الكريم

تأليف
الشيخ / عبد الحميد كشك

الناشر
المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر سيدنا الحسين



مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلاة وسلاما على خاتم الأنبياء والمرسلين . سيدنا محمد النبى الأمين وعلى آله وصحابته أجمعين .

أما بعد

فهذا كتاب قد اشتمل على عدة موضوعات فيها أصول العقائد وشعائر العبادات وشرائع المعاملات ومناهج السلوك وقد اختتمناه بمعرفة الطريق إلى الله تبارك وتعالى . وما أمس حاجتنا جميعا إلى معرفة الطريق إلى خالق السموات والأرض . ففى معرفته جلَّ وعزَّ سعادة الدنيا والآخرة :

﴿من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون﴾(١) .

وقال سبحانه وتعالى : **﴿فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾**(٢) أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة .

وليس الطريق إلى الله بالأمر السهل . بل إن معرفة الطريق إليه سبحانه تحتاج إلى عمل وسلوك . ففى ذلك تزكية النفس وانتصار العقل وإشراق الذهن وتصفية القلب . **﴿ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا﴾**(٣) .

وقال تعالى : **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين﴾**(٤) .

---

(١) سورة النحل [آية : ٩٧] .
(٢) سورة طه [آية ١٢٣] .
(٣) سورة الإسراء [آية ٣] .
(٤) سورة يونس [الآيتين ٩ ، ١٠] .

فلمثل هذا فليعمل العاملون . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

وليس ثمة أدنى شك أن أول لبنة توضع لتشييد هذا الصرح العظيم وهو معرفة الله ومعرفة الطريق إليه سبحانه ـ ماثمة شك فى أن تلك اللبنة الأولى هى بناء النفوس لذلك كان على المشتغلين بالدعوة والهداة الذين يقودون سفينة العالم إلى بر النجاة ـ كان لزاما عليهم أن يعرفوا كيف تبنى النفوس . وفى ذلك الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى . وعلى هذا نستطيع أن نضع أقدامنا على الطريق الصحيح الذى يؤدى إلى معرفته سبحانه وتعالى . والله المستعان وعليه التكلان ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين فى كل وقت وحين .

عبد الحميد كشك

أثر العقيدة فى التربية

إن أثر العقيدة فى التربية بعيد المدى ، شديد القوى .. فالنفس صاحبة العقيدة : راسخة البنيان ، وطيدة الأركان ، لا تعبأ بكوارث الأيام وشدائد الحياة ، ولا تنوء تحت الهموم الثقال ، لأنها تحمل بين جنبيها عقيدة الحق : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[1] ولأنها واثقة أن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، ولا تطرف فيه عين ، ولا يحدث فيه حدث ـ صغير أو كبير ـ إلا بإذن الله . ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار** ﴾[2] .

التربية فى مكة

إن الناظر المتأمل فى الفترة التى قضاها الرسول ـ ﷺ ـ فى مكة بعد البعثة ـ وهى ثلاثة عشر عاما ـ يجد أنها قامت فى نهجها على أساسين أكيدين ، ومبدأين راسخين :

المبدأ الأول : العقيدة ، وتتركز فى الدعوة إلى الوحدانية والإيمان بالبعث .

المبدأ الثانى : يتمثل فى تزكية النفس وتطهيرها بالقيم الأخلاقية والمثل العليا . وفى هذا المبدأ يقول القرآن الكريم : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكَّرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾[3] .

وسنتكلم أولا ولعدة مقالات قادمة إن شاء الله عن المبدأ الأول وهو :

---

(١) سورة القمر [آية ٤٩] .
(٢) سورة الرعد [الآية ٨] .
(٣) سورة الأنعام [الآيات ١٥١ : ١٥٣] .

مبـدأ التوحيد

وفى مبدأ التوحيد : تتضافر آيات الكتاب العزيز بأدلتها الصريحة الحازمة القطعية الثبوت . وليس ثمة أدنى شك أن التوحيد دين الفطرة . قال جل شأنه : ﴿ **فطرة الله التى فطر الناس عليها** ﴾ . وخاطب القرآن ذوى الأفهام الباصرة فقال سبحانه : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا** ﴾[1] . وقال تعالى وهو يخاطب ذوى العقول والبصائر : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[2] .. ثم يؤكد هذا الجانب تأكيدا ينسجم تمام الانسجام مع ذوى الألباب فيقول سبحانه : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون** ﴾[3] .

فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه وقلت له : من خالقك ؟ لقال : أنا مخلوق للواحد الديَّان !! فما هذه المبدعات الإلهية ، والآحاد الكونية إلا كلمات ناطقات بلسان أقوى من لسان المقال ، بأن الله واحد لا شريك له : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مداداً . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا . ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾[4] .

واسمع إلى قوله جل جلاله : ﴿ **ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم** ﴾[5] .

---

(١) سورة الروم [آية ٣٠] .
(٢) سورة الأنبياء [آية ٢٢] .
(٣) سورة المؤمنون [آية ٩١] .
(٤) سورة الكهف [آية ١٠٩ ، ١١٠] .
(٥) سورة لقمان [آية ٢٧] .

اخا الإسلام :

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك !!

فالله جل جلاله واحد فى ذاته لا قسيم له ، واحد فى صفاته لا شبيه له ، واحد فى أفعاله لا شريك له ، وقد ألقى القرآن باللائمة ونعى على الذين وصفوا الله بأن له ولدا فقال سبحانه : ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟** ﴾[1] وقال جل فى علاه : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا** ﴾[2] .

وهذا نفر من الجن بعد أن استمع إلى القرآن الكريم أشرق قلبه بنور التوحيد فقال : ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جَدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا** ﴾[3] .

والله جل جلاله تنزه عن الجسمية ، فليس ـ سبحانه وتعالى ـ بجسم ، ولا معدود ، ولا محدود ، ولا متبعض ، ولا متجزىء ، ولا متلون ، ولا متكيف ، ولا يُسأل عنه بمتى كان : لأنه خالق الزمان ، ولا بأين هو : لأنه خالق المكان ، وما خطر ببالك ، فالله تعالى بخلاف ذلك .. وفى ذلك يقول تبارك وتعالى قولا فصلا : ﴿ **ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير** ﴾[4] .

إن الوحدانية هى نداء الفطرة السليمة التى لم تكدرها انحرافات الهوى و لم تغيرها اتجاهات مريضة ، فاللهم اهدنا إلى الصراط السوى واعمر قلوبنا بحبك وحب من يحبك . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وللحديث بقية إن شاء الله .

---

(١) سورة الأنعام [آية ١٠١] .
(٢) سورة مريم [آية ٨٨ ـ ٩٢] .
(٣) سورة الجن [آية ١ ـ ٣] .
(٤) سورة الشورى [آية ١١] .

كل مولود يولد على الفطرة

نواصل بإذن الله حديثنا عن المبدأ الأول فى بناء النفوس وهو العقيدة حيث تتركز فى الدعوة إلى الوحدانية والإيمان بالبعث . وقد أخبر الصادق الأمين ـ ﷺ ـ بأن : « **كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه** » .. ويقول ربنا تبارك وتعالى فى الحديث القدسى الجليل : « **إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا** » .

أخا الإسلام يكفى كلمة التوحيد شرفا وقدرا أنها رسالة الأنبياء جميعا . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[1] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله** » .

والعقيدة الصحيحة للمؤمن أن يؤمن إيمانا حقا لا حدود له بأن الله خالق كل شيء ومقدره . يقول تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « **يؤذينى ابنُ آدم : يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار** » !!

فليس لنا أن نلقى باللائمة على الأيام والليالى ، فإنها من خَلْق الله ، وهذا معنى قوله تعالى فى الحديث : « **وأنا الدهر** » أى خالقه : ﴿ **الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل** ﴾[2] ، ﴿ **يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾[3] ، ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[4] .

أخا الإسلام :

عش راضيا واترك دواعى الألم　　واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش　　فيها كريما واعتبرها عدم

---

(١) سورة الأنبياء [آية ٢٥] .
(٢) سورة الزمر [آية ٦٢] .
(٣) سورة النور [آية ٤٤] .
(٤) سورة القمر [آية ٤٩] .

العقيدة الصحيحة

العقيدة الصحيحة هى التى لا يختلج قلب صاحبها شك فى قدرة الله وعظمته ، ويوم يتسرب الشك إلى قلبه فقد وقع تحت طائلة المقت والغضب ، وهذا هو حديث ربنا جلّ فى علاه يقول فيه : « **كذّبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك : أما تكذيبه إياى فقوله : لن يُعيدنى كما بدأنى ، وليس أولُ الخلق بأهون عَلَىّ من إعادتهم ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد** » .

يامبدع الخلق يامن لا شريك له ... طوبى لمن عاش بين الناس يهواك
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا ... من فيض جودك ربى كيف ينساك
والله ما سعدت روحى ولا فرحت ... فى الدهر ما بقيت إلا بذكراك

والعقيدة الصحيحة تقتضى من صاحبها ألا يسند الأمور لغير الله : فالله هو الخالق الذى لا يشاركه فى خلقه أحد ، فمن أسند الأمور لغير الله فى إيجادها وتقريرها وتدبيرها وتصريف شؤونها ، فقد أصيب فى عقيدته بما يدعوه إلى وجوب تصحيحها : ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل** ﴾[1] .

وقد جاء فى الحديث الشريف عن زيد بن خالد الجهنى ـ رضى الله عنه ـ قال : « صلى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف النبى ـ ﷺ ـ أقبل على الناس فقال لهم : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته ؛ فذلك مؤمن بى ، كافر بالكواكب ، وأما من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا : فذلك كافر بى . مؤمن بالكواكب » (معنى على إثر سماء : أى عقب مطر) .

---

(١) سورة الأنعام [آية ١٠٢] .

وفى هذا الحديث الشريف ما يرشد إلى أن الذين أسندوا فعل المطر إلى فضل الله ورحمته : كانوا مؤمنين بالله ﴿ **وهو الذى ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد** ﴾[1] وأما الذين أسندوا إنزال المطر إلى كوكب من كواكب السماء فقد تنكبوا الجادة وحادوا عن الصراط السوى : فالكواكب وغيرها من المخلوقات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فهى من باب أولى لغيرها كذلك . ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[2] .

العقيدة .. مراقبة الله تعالى

أخى القارىء الكريم : لما كانت العقيدة هى مركز الدائرة الذى تدور حوله شعائر العبادات ومبادىء الأحكام ، وقواعد النظام ، فقد حرص الإسلام حرصا شديدا على أن يحيط المركز بسياج منيع وأسوار عالية لا يستطيع الشك أن يلقى بذوره فى ساحتها المقدسة ، أو أن يقتحم عليها حصونها المكينة .

اقرأ معى قول الله تبارك وتعالى ، حيث يؤكد لعباده المؤمنين أنه محيط بكل شىء : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم** ﴾[3] .

فهذه الآية بجلالها وعظيم شأنها تملأ قلب المؤمن بمراقبة الله تعالى وهيمنة سلطانه ، واطلاعه على الخفايا والأسرار ، وبمكنون الصدور والأخبار .. ثم اقرأ قوله جل شأنه : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير** ﴾[4] .

ثم اسمع إلى موسى وهارون عليهما السلام وهما يقولان لرب العزة : ﴿ **قالا ربنا**

(١) سورة الشورى [آية ٢٨] .
(٢) سورة فصلت [آية ٣٧] .
(٣) سورة المجادلة [آية ٧] .
(٤) سورة الحديد [آية ٤] .

إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾[1] فماذا قال لهما عالم الغيب والشهادة قال : **﴿ قال لا تخافا ، إننى معكما أسمع وأرى ﴾**[2] .

وما أجل قوله تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « **ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، وإنما وسعنى قلب عبدى المؤمن** » .. فإذا ما حاول الشيطان أن يرسل وساوسه كالطفيليات التى تحاول أن تتغذى على حساب النبات الصالح ـ فعلى صاحب العقيدة الصحيحة أن يستعيذ بالله منه ولا يعبأ لوساوسه : **﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾** .. يقول صلوات الله وسلامه عليه : « **يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته** » .

وفى حديث آخر : « **هذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل : آمنت بالله** » !

الداء والدواء

صدقت يا سيدى يا رسول الله ، يا من كنت تشخص الداء وتصف الدواء ، فليس أمام وساوس الشيطان وحربه النفسية إلا أن يستعصم الإنسان بربه ، ويثبت قلبه بالقول الثابت ، فما تكون وساوسه بعد ذلك ؟ إنها كذبابة تحاول أن تحجب بجناحيها ضوء الشمس أو نور القمر .. وما يكون كيده بإزاء قلب امتلأ بتوحيد الله ؟ إنه مهما حاول بوساوسه أن يغيّر أو يبدل هذه القلوب فإن مثله كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاهُ وما هو ببالغه ، وسرعان ما يندحر مخذولا محسورا ، كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

الله ربى لا إلــــه سواه   هل فى الوجود حقيقة إلاه ؟!
يامن له وجب الكمال لذاته   الكل غاية فوزهم لُقْيَــاهُ !

---

(١) سورة طه [آية ٤٥] .

(٢) سورة طه [آية ٤٦] .

الإيمـان والإخـلاص

الإخلاص : شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تُؤتى أُكُلَها كل حين بإذن ربها .

والرياء : شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ..

القلوب المخلصة ترسل أشعتها فتضيء للناس طريق النجاة .. والقلوب المرائية تفرز سوادا قاتما وظلمة حالكة تتعثر المجتمعات فى سراديب ضلالها .

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالإخلاص ، فقال للمبعوث رحمة للعالمين : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾[1] . وقال : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾[2] . وقال : ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له دينى** ﴾[3] . وقال سبحانه : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾[4] .

فالإخلاص هو الروح السارية فى الإيمان عقيدة أو عبادة أو معاملة ، وبغير الإخلاص تصبح أعمال المسلم نواة لا روح فيها . وليس أدل على ذلك من أن الله مدح المخلصين بقوله : ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما** ﴾[5] .. وألقى القرآن باللوم الشديد والزجر العنيف على هؤلاء الذين يُراءون الناس ولا يبتغون بأعمالهم ما عند الله . فقال سبحانه : ﴿ **فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يُراءون ويمنعون الماعون** ﴾[6] .. فما هو الإخلاص ؟ وما هى درجات المخلصين ؟ هذا ما سنوضحه فى حديث قادم إن شاء الله .

اللهم اعمر قلوبنا بالإخلاص والتقوى وآت نفوسنا تقواها وزكها فأنت خير من زكاها .. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة الزمر [آية ٢] .
(٢) سورة الزمر [آية ١١ ، ١٢] .
(٣) سورة الزمر [آية ١٤] .
(٤) سورة البينة [آية ٥] .
(٥) سورة النساء [آية ١٤٦] .
(٦) سورة الماعون [آية ٤ ـ ٦] .

ما هو الإخلاص

الحمد لله رب العالمين ، جعل مع الصبر نصرا ، ومع الضيق فرجا ، ومع كل شدة مخرجا ، ومع العسر يسرا ، وجعل لكل بداية نهاية . فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر . وأشهد أن لا إله إلا الله : من استعزّ بالله ألبسه ثوب العزة وأغناه عن الناس .. قيل لتقى الدين الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ: ما سر زهدك فى الدنيا ؟ فقال : أربعة أشياء ؛ علمت بأن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى ، وعلمت أن عملى لا يقوم به غيرى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع على فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا محمدا رسول الله ، وقف مواقف الأبطال فى ساعات الشدة . فعندما صمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب : وقف فى حومة الوغى ، يدفعه إيمانه ، وتحفزه عقيدته يقول : « **أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب** » .

الإخلاص يا أخى أن يقصد العبد بعمله وجه الله وحده لا شريك له ، ومن ثمَّ فقد أوصى الله رسوله أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين قال فيهم : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾[1] .

وقطع القرآن الحيل المراوغة التى أراد بها أهل الباطل أن يباعدوا بها بين النبى ـ ﷺ ـ وبين هؤلاء المخلصين المتواضعين ، فقال فى كتابه العزيز : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه** ﴾[2] وأوصاه بهم خير فقال : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم** ﴾[3] . ولقد كان الرسول

---

(١) سورة الكهف [آية ٢٨] .
(٢) سورة الأنعام [آية ٥٢] .
(٣) سورة الأنعام [آية ٥٤] .

ـ ﷺ ـ يبسط لهؤلاء النفر رداءه ليجلسهم عليه ويلقاهم مرحبا بهم فيقول : « **مرحبا بمن أوصانى ربى بهم خيرا** » .

وهذه درجات المخلصين يبينها الرسول ـ ﷺ ـ فيقول : « **طوبى للمخلصين : أولئك مصابيح الهدى ، تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء** » .

يا أخا الإسلام :

سهرت أعين ونامت عيون في شؤون تكون أو لا تكون
إن ربًا كفاك بالأمس ما كان سيكفيك فى غد ما يكون !

إنما الأعمال بالنيات

عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** » .

وليس أمر الإخلاص فى النية قاصرا على الدنيا وحدها ، بل إنه يمتد أثره إلى ما بعد الموت .. فالناس يبعثون على ما ماتوا عليه . فإن كانت نياتهم مخلصة لله بُعثوا يوم القيامة مع المؤمنين الناجين من عذاب الله ، وإن لم تكن النيات مخلصة فالويل والعذاب .

قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم** » ، قالت : قلت يا رسول الله : كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ، ومن ليس منهم ؟ قال : « **يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم** » .

تأمل هذا الحديث الشريف : تجد أن الجيش الذى سيغزو بيت الله الحرام سيخسف به قبل أن يحقق ما يريده من البغى والإفساد ، وسيموت معه قوم ليسوا منهم ، والنيات هى التى ستكون فيصلا حاسما وحازما فى الأمر ، وإن

كان الجميع قد مات ، إلا أن مدار الجزاء على النية . فالنية السيئة تهوى بصاحبها إلى أسفل الدركات والنية المخلصة ترفع أهلها إلى أعلى الدرجات .

بل لقد شاء الله الكريم ـ بفيضه وجوده ـ أن يجرى الثواب ويمنح الحسنات لقوم لم يستطيعوا أن يشاركوا فى الأعمال الجليلة : لأن الأعذار منعتهم وكان فى نياتهم لو استطاعوا لفعلوا .. هذا رسول الله ـ ﷺ ـ يخبر أصحابه فيقول لهم وهم فى إحدى الغزوات : « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض » وفى رواية : « إلا شاركوكم فى الأجر » .

ولذا قال القائل :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا
لقد أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحا

والإخلاص فى النفقة ـ حتى على الأهل الذين تجب لهم النفقة ـ يجعل لصاحبها ثواب الصدقة . قال ـ ﷺ ـ: « **إذا أنفق المسلم على أهله نفقة ، وهو يحتسبها : كانت له صدقة** » .

وكل ما يقصد الإنسان به وجه الله من الخير فهو صدقة ، وأجر وثواب وذخر ، وها هو ذا سعد بن أبى وقاص يروى لنا هذا المشهد فيقول : جاءنى رسول الله ـ ﷺ ـ يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى ، فقلت يا رسول الله : « إنى قد بلغ بى من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثنى إلا ابنة لى ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال لا ، قلت : فالشطر يا رسول الله ؟ فقال لا ، قلت فالثلث يا رسول الله ؟ قال : الثلث ، والثلث كثير ـ أو كبير ـ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل فى (فِي) امرأتك » (أى فمها) .

ولكون الإخلاص هو الأساس فى قبول الأعمال : نسمع أبا هريرة رضى الله عنه يروى فيقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم** » رواه مسلم .

ولقد كان المسيح عليه السلام يقول : « يابنى إسرائيل : لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله » .

اخا الإسلام :

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا — إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم أنه بك واثق — وإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة — ويروغ منك كما يروغ الثعلب

صدقت يا سيدى يا رسول الله يا من قلت : « **ولكن ينظر إلى قلوبكم** » فقد قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « **الإخلاص سر من أسرارى ، استودعته قلب من أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده** » .

اخا الإسلام :

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفا — فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه — ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة — فلا خير فى ود يجيىء تكلفا
ولا خير فى خل يخون خليله — ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده — ويظهر سرا كان بالأمس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها — صديق وفى يصدق الوعد منصفا

صدقت يا سيدى يا رسول الله ، يا من قلت : « **لا تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى** » ويا من قلت : « **المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل** » .

فما أعظم الإخلاص فى بناء النفوس وتربية الأفراد والأمم ، لأنه يبنى النفوس على دعائم ثابتة من تقوى الله فى السر والعلن . فاللهم اهدنا إلى ما تحبه وترضاه واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الإخلاص فى الجهاد

ما زلنا نواصل حديثنا عن الإخلاص نظرا لمكانته الرفيعة فى بناء النفوس وأثره فى التربية الإسلامية حيث يشيد النفوس على دعائم متينة لا تلين أمام إغراءات المادة وبريقها الزائف .

والإخلاص فى النهج الإسلامى يأخذ مكانته اللائقة فى كل شىء بل وفى أخطر الأشياء : فى الجهاد الذى نسترخص الأرواح فى أسواقه ، والذى نجود فيه بالمهج والنفوس !! لقد قال الصادق الأمين بعد أن هاجر إلى المدينة : « **لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استُنفرتم فانفروا** » أى لا هجرة من مكة بعد فتحها فقد صارت دار إسلام ، ولكن يدور الأمر على الجهاد المقترن بالنية المخلصة ، فلو لم تكن هناك نية فلا جهاد والجهاد هنا بمعناه الواسع : جهاد الكلمة ، وجهاد النفس ، وجهاد السيف .

استمع معى إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهو يُسأل فيجيب ببلاغة موجزة وبيان صريح : عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : « سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء : أىُّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » متفق عليه .

الإخلاص فى الصلاة

وننتقل الآن من دور الإخلاص فى ساحة الجهاد وميادين القتال إلى دوره فى الصلاة وكثرة الخطا إلى المساجد ، حيث يخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه فيقول : « **صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى سوقه وبيته بضعا وعشرين درجة . وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة : لم يخط خطوة إلا رُفع له بها درجة ، وحُط عنه بها خطيئة ،**

حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم مادام فى مجلسه الذى وصلى فيه ، يقولون : اللهم ارحمه اللهم اغفر له ، اللهم تب عليه : ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه » متفق عليه .

تعالى يا أخا الإسلام لتنهل من هذا الفيض الربانى ، وترتشف من هذا الرحيق الصافى من الكوثر المعسول والكرم الإلهى .. إليك ما قاله الرسول ـ ﷺ ـ عن فضل الله العلى العظيم جل جلاله فى الحديث القدسى الجليل حيث يقول : « **إن الله كتب الحسنات والسيئات** » ثم بين ذلك : « **فمن هم بحسنة فلم يعملها : كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها : كتبها الله عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها : كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها : كتبها الله سيئة واحدة** » . فبالإخلاص يصح الإيمان ، وبالتوحيد يرتفع البنيان ، وبالإيمان والتوحيد والإخلاص تبنى النفوس .. فما أعظم الإيمان فى بناء النفوس !!

النفـــاق

النفاق ضد الإخلاص .. فإذا كان الإخلاص هو أن يقصد العبد بعمله وجه الله تعالى ، فإن النفاق على النقيض من ذلك . حيث يكون المقصود بالعمل غير الله ، ومن ثم : لا يكون هناك إخلاص ، وعندها تختل الموازين ، وتنهار القواعد ، ويهتز المجتمع .

فإذا كان الإخلاص هو حجر الأساس فى بناء النفوس ، فإن النفاق أكبر معول يحطم النفوس ، والنفاق ضد الإيمان ، والمنافقون فى كل زمان ومكان عالة على المجتمعات فى السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة ساعة الضراء ، لا يعدون للجهاد عدة ، ولا يتمنون للمجاهدين عودة : ﴿ **يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هٰهنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم** ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران [آية ١٥٤] .

﴿ يأيُّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًّا لو كانوا عندما ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يُحيى ويميت . والله بما تعملون بصير ﴾[1] ، ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ؛ قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾[2] !.

هذه أقوال أصحاب الرياء والنفاق فى تثبيط الهمم وإحباط العزائم : **﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ﴾[3]** !! .

إن الله جلَّ جلاله يحب المخلصين ، ويبغض أهل الرياء المنافقين .. لقد حكم بالعذاب فى جهنم على نماذج من الناس : أقوالهم معسولة ، وقلوبهم أمر من الصبر يلقاك أحدهم عناقا ، ويقسم أنه لا يطيق لك فراقا .. ملاك فى مظهره ، شيطان فى مخبره .. يلقاك بوجه أبى ذر ، وقلب أبى جهل .

يقول جل فى علاه : **﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدُّ الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[4]** !! .

أقسام النفاق

والنفاق أقسام ثلاثة : نفاق فى العقيدة : يضمر صاحبه الكفر فى قلبه ، ويظهر الإسلام على لسانه .

ونفاق فى العبادة : يدخل فيها على حرف غير متمكن ولا متثبت .

ونفاق فى المعاملة : لا يعامل الناس بما يتفق وقواعد الأخلاق الإسلامية .

وقد أفاض الكتاب العزيز والسنة المطهرة فى بيان هذه الأقسام ، والتحذير منها . هو ما سنحاول توضيحه هذه المرة والمرات القادمة إن شاء الله ونبدأ بـ :

(١) سورة آل عمران [آية ١٥٦] .
(٢) سورة آل عمران [١٦٨] .
(٣) سورة التوبة [آية ٤٧] .
(٤) سورة البقرة [آية ٢٠٤ – ٦] .

النفاق فى العقيدة

يقول جل جلاله فى هؤلاء : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾[1] . ثم تبين الآيات الكريمة أن ما أصاب هؤلاء ليس مرضا جسمانيا فى عضو من أعضائهم ، أو مرضا فسيولوجيا فى قلوبهم ، إنما هو مرض من أخطر الأمراض .. إنه مرض النفاق : ﴿ **فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[2] . ثم يشرح القرآن أعراض هذا المرض ، ويحكم على كل عرض منه فيقول عن هؤلاء : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾[3] فيصدر الحكم الصادق : ﴿ **ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾[4] .

ثم يذكر عرضا آخر فيقول : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾[5] فيصدر الحكم الصادق : ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ . ثم يذكر عرضا ثالثا فيقول : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾[6] .

فيصدر الحكم الصادق : ﴿ **الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾[7] ثم يحكم على هؤلاء جميعا بقوله جل شأنه : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾[8] . ثم يصورهم فى مثلين عجيبين : أحدهما للمنافقين الخلص ، الذين لا تشوب قلوبهم شائبة الإخلاص ، ولا تنفتح فيها نافذة تضىء لها طريق المعرفة فيقول تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون** ﴾[9]

---

(١) سورة البقرة [آية ٨ ، ٩] .
(٢) سورةالبقرة [آية ١١] .
(٣) سورة البقرة [آية ١٢] .
(٤) سورة البقرة [آية ١٣] .
(٥) سورة البقرة [آية ١٣] .
(٦) سورة البقرة [آية ١٤] .
(٧) سورة البقرة [آية ١٥] .
(٨) سورة البقرة [آية ١٦] .
(٩) سورة البقرة [آية ١٧ ، ١٨] .

والمثل الآخر لقوم مترددين متحيرين لا يستقرون على حال ، ولا يثبتون على مبدأ ، فهم فى غيهم يترددون .. ذلك لأن قلوبهم قد ارتابت وتحيرت ، فيقول : ﴿ **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير** ﴾[1] .

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، واهدنا لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا .

---

(١) سورة البقرة [آية ١٩] .

النفاق فى العقيدة

ما زلنا نواصل حديثنا عن نفاق العقيدة كمعول يحطم النفوس ويبعدها عن المورد العذب الصافى فتختل الموازين وتنهار القواعد ويهتز المجتمع . فبعد أن تكلمنا عن مثلين لذلك النفاق : أحدهما للمنافقين الخلص الذين لا تشوب قلوبهم شائبة الإخلاص ، والمثل الآخر لقوم مترددين متحيرين لا يستقرون على حال ولا يثبتون على مبدأ . نتكلم هنا عن النفاق فى موطن الجهاد والخروج إلى القتال . يقول الله فى حق هؤلاء : ﴿ **وإن منكم لمن لَيُبَطِّئَن ، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىَّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضلٌ من الله ليقولنَّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما** ﴾[1] ويحكم الله على هذا الفريق بقوله : ﴿ **بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا . وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟** ﴾[2] !.

إذاً : فحياة هؤلاء : استغلال وانتهاز للفرص ، وأنانية وحقد وحسد ثم يذكر القرآن عرضاً آخرلهذا الوباء الخطير والشر المستطير فيقول سبحانه : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾[3] .. ثم يصدر الحكم الصادق على هؤلاء المنحرفين عن طريق الجادة فيقول : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا** ﴾[4] .

---

(١) سورة النساء [آية ٧٢ ، ٧٣] .

(٢) سورة النساء [آية ١٣٨ – ١٤١] .

(٣) سورة النساء [آية ١٤٢ ، ١٤٣] .

(٤) سورة النساء [آية ١٤٥] .

وبعد أن شخص الكتاب العزيز هذا الداء الوبيل وصف الدواء ، مهما كان خطر الداء مستفحلا ، ومهما سرى سريان النار فى الحلفاء ، والسم الزعاف فى الأحشاء : إن الدواء الناجح ، والعلاج النافع لهذا المرض يتمثل فى : التوبة ، الإصلاح ، الاعتصام ، الإخلاص .

توبة نصوح إلى الله ، وإصلاح بين الناس ، واعتصام بحبل الله ، وإخلاص لدين الله .. قال عز من قائل ﴿ **إلا الذين تابوا ، وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما** ﴾[1] .

نفاق العبادة

وهذا النوع الخبيث من النفاق وصف القرآن الكريم أصحابه بأنهم إذا عبدوا الله لا يعبدونه عبادة الواثق المطمئن ، وإنما يدخلون العبادة على جزء يسير ، وحرف ضعيف ، وطرف غير ثابت : فإن أصابهم خير من مال وولد وصحة وجاه اطمأنوا لهذا الجزء اليسير من الدين ، وإن أصابتهم فتنة من مرض أو فقر أو ابتلاء انقلبوا على وجوههم خاسرين ، لا يعرفون لله حقا ، ولا لرسوله واجبا . ولقد صورت الآية هؤلاء تصويرا قويا ، فقال سبحانه : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف : فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين** ﴾[2] . هؤلاء فقدوا أهم صفات الإنسانية الصحيحة : ألا وهى صفة الوفاء ، التى إذا فقدها الإنسان أصبح جسدا لا روح فيه .

---

(١) سورة النساء [آية ١٤٦] .

(٢) سورة الحج [آية ١١] .

نفـاق المعامـلة

وهذا هو القسم الثالث من أقسام النفاق .. ويتمثل فى صور سيئة تتعلق بالمعاملات : لقد دلت الأحاديث الصحيحة التى رُويت عن المعصوم ـ ﷺ ـ أن هناك آيات وعلامات وأمارات : من اتصف بها كان منافقا . وعندما « نغربل » هذه الصفات ونطرحها على بساط البحث نجدها تدور حول خمس صفات :

١ ـ إذا حدَّث كذب .

٢ ـ إذا وعد أخلف .

٣ ـ إذا اؤتمن خان .

٤ ـ إذا عاهد غدر .

٥ ـ إذا خاصم فجر .

ولعلك ـ أيها القارىء الكريم ـ تلمح أن هذه الصفات كلها على النقيض من صفات المؤمنين : فالمؤمن إذا حدَّث صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا اؤتمن أدى ، وإذا عاهد أنجز ، وإذا خاصم لا يجور ولا يفجر قل لى بربك : لو وُجدت هذه الخصال ـ خصال المنافقين ـ فى أمة : هل تقوم لها قائمة ، أو ترتفع لها راية ؟ اسمع معى إلى قول رسول الله ـ ﷺ ـ، وهو يحث على الصدق ، ويحذر من الكذب فيقول : عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقا ؛ وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا .. وما أروع هذا البيان الموجز الذى وصى به الرسول الأمين ـ صلوات ربى وسلامه عليه ـ أحد طالبى الوصية فقال له : « **لا تكذب** » . ولعل الوباء الذى استشرى ، والخطر الذى استفحل فى هذه الحياة إنما يرجع إلى أصل واحد : هو الكذب ، فالكذاب خائن فى

وعده ، وفى عهده ، وفى أمانته ، وفى خصومته . لا يقيم للقيم الأخلاقية وزناً ، ولا للمثل العليا قدراً ، لأنه يعيش فى هذه الدنيا عيشة السائمة لا تبتغى إلا أن تأكل وتملأ جوفها ، وهى تعلم أن هلاكها فى سمنها .

الصدق من صفات الرسل

ولقد لقب الرسول ـ ﷺ ـ قبل رسالته بأنه « الصادق الأمين » هكذا شهد له بنو قومه ، حتى إنك ليأخذك العجب ، وتستولى عليك الدهشة عندما تتأمل هذا الموقف الذى وقفه ـ ﷺ ـ عند الهجرة : فقد خلّف علىّ بن أبى طالب وراءه ليؤدى الودائع إلى أهلها . إذ أن أهل مكة كانوا لا يأمنون أحدا على ودائعهم إلا الصادق الأمين ـ ﷺ ـ.

ولقد مدح الله اسماعيل ـ عليه السلام ـ بقوله : ﴿ **واذكر فى الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيا** ﴾[1].

وأمر الله عباده أن يكونوا مع الصادقين ، فقال عزّ من قائل : ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[2] .

وصف الله أصحاب رسوله ـ ﷺ ـ بأنهم أهل الصدق فقال : ﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون** ﴾[3] .

إذن : مدار الأمر كله يعود إلى الصدق فى القول ، والإخلاص فى العمل . ويوم يتوفر هذا الجانب فى نفس المؤمن : فلسوف ينتظم منهجه فى الحياة ، ويستقيم خلقه بين الناس ، فالصدق فى الحديث : مطابقة الخبر للواقع ، والصدق فى الوعد : الوفاء به ، والصدق فى الأمانة : أداؤها ، والصدق فى العهد : الحرص على إنجازه ، والصدق فى الخصومة : قول الحق ولو على نفسك .

إننا لا ننسى هذا المشهد الرائع ، والموقف الجليل الذى وقفته أم المؤمنين خديجة

---

(١) سورة مريم [آية ٥٤ ، ٥٥] .
(٢) سورة التوبة [آية ١١٩] .
(٣) سورة الحشر [آية ٨] .

عليه الملك فى « غار حراء » يأمره بالقراءة ، ودخل الرسول ـ ﷺ ـ على زوجته الوفية يرجف فؤاده .. فماذا كان قولها لتزيل عنه ما ألمّ به ؟

لقد وصفته بكريم الشمائل ، وحميد السجايا ، وقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً » ودعمت قولها بتلك الحيثيات القوية : « إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

أخى المسلم : تطهر من صفات النفاق لأنها تقود إلى النار ، وتمسك بصفات الرسل الكرام وعلى رأسهم سيدنا محمد ـ ﷺ ـ، لأن تلك الصفات لها عظيم أثرها فى بناء النفوس وإسباغ السكينة والطمأنينة عليها . واستمع معى إلى قول الله عزّ وجلّ : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾[1] . صلى عليك الله يا علم الهدى ، وجعلنا من المتبعين لهدى كتابه الكريم وسنة رسوله العظيم ووفقنا إلى ما يحبه ويرضاه .

---

(١) سور آل عمران [آية ٢١] .

الرياء وأثره فى النفوس

إذا كان النفاق ضد الإيمان ، فإن الرياء ضد الإخلاص ، فكما لا يجتمع نفاق وإيمان فى قلب واحد ، كذلك لا يجتمع رياء وإخلاص فى قلب واحد ، وحيث قد علمنا النفاق وما يدور حوله وما يشتمل عليه من نفاق فى العقيدة أو العبادة أو المعاملة ، فقد رأينا أن نذكر كلمة عن الرياء ، وهو أن يقصد العبد بعمله غير وجه الله تعالى . وفى هذا يحذر العلىّ العظيم هؤلاء المرائين . فيقول فى الحديث القدسى الجليل : « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك : من عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه** » . وجاء فى الحديث أيضا : « **يخرج آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله ـ عز وجل ـ: أبى يغترون ؟ أم علىَّ يجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران** » . ومعنى قوله : « يختلون الدنيا بالدين » . أى ينتزعون خيرات الدنيا ويحصدونها باسم الدين .

فكن قوىَّ الثقة بالله ، فلا يميلن قلبك إلى الرياء أو حب سمعة حتى تبنى نفسك على دعائم قوية من الإيمان وهو الطاقة الربانية الدافعة لخيرى الدنيا والآخرة .

ما يجب أن يكون عليه المسلم

أخى المسلم : لكى يكون الإنسان من الرجال الذين يريدون أن يشيدوا صروح الكرامة فى الحياة ، ويضيئوا شموس الهداية لأقوامهم ، لابد أن يكون وفياً بعهده ، ولكى يكون كذلك : لابدّ وأن يلتزم بعنصرين : العنصر الأول : الذكر . والعنصر الثانى : قوة العزيمة . ولذلك ختم الله آية الوفاء بالعهد بقوله : ﴿ **وبعهد الله أوفوا: ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون**﴾[1]. وقال لرسوله ـ ﷺ ـ: ﴿**فإذا عزمت**

(١) سورة الأنعام [آية ١٥٢] .

فتوكل على الله﴾[١] . وما أكل آدم من الشجرة إلا عندما نسى العهد ، قال تعالى : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى** ﴾[٢] .

ولقد أكد القرآن فى آيات كثيرة على لفظ « الذّكر » فختمها قائلا : ﴿ **كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[٣] . ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يذّكرون** ﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات. فإذا قوى العزم : قويت الإرادة فتجشم الإنسان كل الصعاب فى سبيل الوفاء والأداء.. قال تعالى : ﴿ **وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾[٥] .

الوفــاء بالعهــد

إن الله جلَّ جلاله أوحى فى كثير من آياته بالوفاء فى جميع العهود وشتى العقود فقال سبحانه : ﴿ **وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسئولا** ﴾[٦] ، ﴿ **يـأَيُّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾[٧] .. وقد أخذ مولانا تبارك وتعالى عقودا على عباده وعهودا على خلقه ؛ فأول عقد أبرم : ذلك الذى شهد العباد فيه لربهم بأنه الرب الواحد الذى لا شريك له ، وكان ذلك لعموم البشرية بمختلف أشكالها ونماذجها . قال سبحانه : ﴿ **وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم . ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾[٨] .

وأخذ مولانا تبارك وتعالى عهدا على الأنبياء أن يؤمنوا وينصروا ذلك الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ الذى سيختم الله به الرسالات . ومعنى نصرته : أن يوصوا أتباعهم إن هم أدركوا زمانه أن ينصروه ويؤيدوه . قال عز من قائل : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك**

---

(١) سورة آل عمران [آية ١٥٩] .
(٢) سورة طه [آية ١١٥] .
(٣) سورة الأعراف [آية ٥٧] .
(٤) سورة الأنعام [آية ١٢٦] .
(٥) سورة فصلت [آية ٣٥] .
(٦) سورة الإسراء [آية ٣٤] .
(٧) سورة المائدة [آية] .
(٨) سورة الأعراف [آية ١٧٢] .

فأولئك هم الفاسقون ﴾[1] .

وأخذ الله على العلماء عهدا وأبرم معهم عقدا أن يبينوا للناس مانُزّل إليهم من ربهم ولا يكتموا منه شيئا ، فقال سبحانه : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون** ﴾[2] .

وهناك عقود كثيرة ـ غير هذه ـ أوصى الله برعايتها وصيانتها ، فقال سبحانه : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾[3] . وقال جل شأنه : ﴿ **وبعهد الله أوفوا** ﴾[4] . فإذا أبرم المسلم عقدا : وجب احترامه ، وإذا أعطى عهدا : وجب الالتزام به . ومن الإيمان : أن يكون المرء عند كلمة قالها ، ينتهى إليها كما ينتهى الماء عند شطآنه ، وأن يكون عند عهد قطعه على نفسه ، فيُعرف بين الناس بالوفاء ، وبأن كلمته موثق غليظ ، لا خوف من نقضها ، ولا مطمع فى اصطيادها .

ولابد من الوفاء بالعهد ، كما أنه لابدَّ من البر باليمين ، ومناط الوفاء والبر : أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، وإلا فلا عهد فى عصيان ، ولا يمين فى مأثم ، فقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير** » . ومن ثم : فلا تعهد إلا بمعروف .. فإذا وثّق الإنسان عهدا بمعروف : فليصرف همته فى إمضائه ما دامت فيه عين تطرف ، ليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين ، لا يتركان له مجالا للتردد والانثناء ..

سبحانك ربى : عظمت رأفتك ، وجلت حكمتك ، وبلغت قدرتك ووسعت رحمتك .. ما أجلّ الوفاء بالعهد ! ومَن أعظم وفاء من الله بتنفيذه عقده الذى عقده مع المؤمنين ؟! عقد بيع وشراء : أعطاهم الجنة بعدما اشترى منهم الأنفس والأموال وهى ملكه ، وهو خالقها ، ثم قال سبحانه : ﴿ **وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾[5] ، ثم قال : ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله ؟!..** ﴾[6] . فى مدرسة الوفاء بالعهد تربى خريجو المعاهد الإسلامية التى اتصفت بحميد السجايا وكريم

---

(١) سورة آل عمران [آية ٨١ ، ٨٢] .
(٢) سورة آل عمران [آية ١٨٧] .
(٣) سورة النحل [آية ٩١] .
(٤) سورة الأنعام [آية ١٥٢] .
(٥) سورة التوبة [آية ١١١] .
(٦) سورة التوبة [آية ١١١] .

الشمائل : روى أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين !! لئن أشهدنى الله مع النبى قتال المشركين ليرين ما أصنع !.

فلما كان يوم « أُحد » انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم تقدم . فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ : الجنة وربِّ النضر ، إنى لأجد ريحها دون أحد !! قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، ثم تقدم .. قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ، ورمية بالسهم . ووجدناه وقد مثل به المشركون ، فما عرفه إلا أخته بشامة « أو ببنانه » .

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا** ﴾[1] .

والقرآن العظيم يعقب على هذا الموقف فيقول : ﴿ **ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم** ﴾[2] .

فهؤلاء الذين قدروا الوفاء قدره ، وعرفوا الله حقه ، لا يعرف النفاق إلى قلوبهم سبيلا ، لأنهم رجال أبطال ، وقفوا مواقف الشرف فى ساعات العسرة وأوقات الشدة . فعليك يا أخى أن تأخذ عنهم القدوة ، وتجعل منهم الأسوة الحسنة . ـ رضى الله عنهم ـ، ورضوا عنه . واستمع يا أخى إلى هذه الصورة المشرقة المشرفة من الوفاء بالعهد والتى تمثلت على يدى الصديق ـ رضى الله عنه ـ خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ: فعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : « قال لى النبى ـ ﷺ ـ: لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا . فلم يجىء مال البحرين حتى قبض النبى ـ ﷺ ـ. فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فنادى : من كان له عند رسول الله ـ ﷺ ـ عدة أو دين فليأتنا ، فأتيته وقلت له : إن النبى ـ ﷺ ـ قال لى كذا وكذا ، فحثى لى حثية فعددتها ، فإذا هى خمسمائة . فقال لى : خذ مثليها » [متفق عليه] .

---

(١) سورة الأحزاب [آية ٢٣] .　　(٢) سورة الأحزاب [آية ٢٤] .

إنه الوفاء بعهد رسول الله لأن العهد كان مسئولا كما قال المولى عزَّ وجلَّ ولأن أبا بكر من خريجى المدرسة المحمدية التى وضعت للوفاء بالعهد مكانة متميزة . ندعو الله أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

العزة فى طلب الرزق

اخا الإسـلام :

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعليك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعذ به ... وكن عفيفا وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

لقد كان موقف الإيمان دائما من أتباعه : يدور حول الثقة فى الله والاعتزاز بطاعته .. فالروح والرزق لا يملكهما إلا الله تبارك وتعالى . قال - ﷺ -: **« إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها »** .

فيا اخـى :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنه خلق الإنسان من عجل

واعلم بأنه لا يمكن أن تحصل على شيء ليس لك ، ولا يمكن أن يضيع منك شيء هو لك ، فلا تنافق على حساب دينك أو كرامتك أو عزة نفسك ، واقصد بعملك وجه خالقك . قال تعالى : **﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إلـه إلا هو ﴾**[1] .

---

(١) سورة فاطر [آية ٣] .

الرياء يفسد العمل ويحبطه

لقد بلغ من موقف الوحى أنه أجاب على سؤال رجل جاء يسأل رسول الله ـ ﷺ ـ فيقول له : يا رسول الله إنى أصلى طاعة لربى وليرانى الناس . وإذا بالأمين جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل بهذه الآية الكريمة : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾[1] . فالرياء فى العبادة خبث لا يليق . كذلك الرياء فى معاملة الناس . قال عز من قائل : ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا** ﴾[2] . ولقد أخبر الصادق المعصوم أن من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين : يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه .

ولعلك يا أخى ترتعد منك الفرائص عندما تقرأ هذا الحديث النبوى الشريف الذى أودى الرياء فيه بقوم قدَّموا أعمالا ولم يقصدوا بها وجهَ الله .. أودى بهم إلى النار وعذابها : قال ـ ﷺ ـ: « **إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد ، فأُتى به فعرَّفه الله نعمه ، فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استُشهدت ، قال كذبت . ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن . فأتى به فعرفه الله نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته وقرأت القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار !!** » [رواه مسلم] .

---

(١) سورة الكهف [آية ١١٠] .   (٢) سورة النساء [آية ١٠٨] .

أرأيت إلى الرياء ، كيف يحبط الأعمال مهما بلغت وجلّت وعظمت ؟ أبعد القتال والعلم والإنفاق أعمال تقاس بها ؟ ومع ذلك فإن دخول الرياء فيها هشم أسوارها ، وحطم بنيانها ، وقوض أركانها ، وأزال قوتها ، وضيع ثوابها !!.. نعوذ بالله من الرياء . لقد صدق الله رب العالمين حيث يقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾[1] .

إن النفس تسيل مرارة ، وإن الكبد تظل مقروحة عندما نقرأ هذا الحديث الشريف وتلك الآية الكريمة . فالمراءون يحاولون أن يخادعوا ــ حتى وهم واقفون بين يدى الله ــ ويحاولون أن يظهروا أنهم قدموا الأعمال ابتغاء مرضاته ، فيقول لهم الله جل جلاله : كذبتم ! إن هذه الكلمة لها وقع تكاد الجبال تخر له هدًّا . وما ذاك إلا لاختلاط الرياء بالأعمال ، فأزال ثوابها كما يزال المطر الغزير تراباً على حجر ، فيتركه أملس ناعما لا شيء عليه .

تنبيه وتحذير

اعلم أن المرائى لا يغيب أمره عن الناس ، مهما طال به عهد الرياء ، بل لابد أن تظهر حقيقته أمام الخلق في يوم ما . قال صلوات الله وسلامه عليه : « **من سمّع : سمع الله به ، ومن يرائى : يرائى الله به** » . ومعنى سمع (بتشديد الميم) أى أظهر عمله للناس رياء . وسمع الله به : أى فضحه الله يوم القيامة .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر ــ رضى الله عنه ــ يقول : « من تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذاك : هتك الله ستره وأبدى فعله » .

وما من شك فى أن أخطر الأشياء التى يحبطها الرياء : العلم ، إذا كان المقصود به غير الله ، وغير ما عند الله .. قال ــ ﷺ ــ: « **من تعلم علماً يبتغى به وجه**

(١) سورة البقرة [٢٦٤] .

الله عزّ وجلّ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا : لم يجد عَرَف الجنة يوم القيامة ـ يعنى ريحها » [رواه أبو داود] .

ونصيحتى :

على كل مسلم مخلص أن يراعى الله فى كل فعله .. يقول القرآن الكريم مظهراً هذه القضية : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له . وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين** ﴾[1] . ولقد صدق رسول الله ـ ﷺ ـ عندما جعل دستور الحياة أمام الناس هذه الكلمات الفاصلة : « **ومن أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس ومن أسخط الله بإرضاء الناس : وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته : أصلح الله علانيته** » .

فائدة جليلة

نختم هذا المقال بهذه الفائدة الشرعية الجليلة :

هناك من الأمور من يتوهم الإنسان أنه رياء ، وليس برياء ، ومثل هذا ما روى عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قيل لرسول الله ـ ﷺ ـ: « أرأيت الرجل الذى يعمل من الخير ويحمده الناس عليه ! قال : تلك عاجل بشرى المؤمن » . رواه مسلم . ومعنى هذا أن الناس إذا أثنوا بلسان الحق على من يفعل الخير فليس هذا رياء ، إنما هو من باب قول الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : « **عبدى : لم تشكرنى إن لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه** » .

بهذا الإيمان تبنى النفوس على العزة والكرامة وتشيد صروحها على المعرفة والأمانة ، لأنها دائما فى حال مراقبة أو مشاهدة : « **اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » . وليس ثمة أدنى شك أن القلوب المؤمنة فى حالة ذكر لربها لا تعرف الغفلة أو الرياء . أسمعت إلى نوح عليه السلام عندما اشتد به الكرب ، وزاد عليه عناد قومه واتهم بأنه مجنون وازدجر ، ماذا قال ؟

---

(١) سورة الأنعام [آية ١٦٢ ، ١٦٣] .

« **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمْرٍ قد قُدِر** » .

ثم اسمع إلى مؤمن آل فرعون ـ بعدما بذل النصح والتوجيه ، وبين الطريق السوى ـ يقابل من قومه بما لا يليق بالناصحين المخلصين فيقول لهم : « **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد** » فتأتى الإجابة والنجدة من رب العزة الذى يغيث الملهوفين الصادقين : « **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب** » .

وها هو ذا ذكريا ـ عليه السلام ـ يريد ولدا صالحا وغلاما رضيا ، فيتوجه إلى الله : ﴿ **رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين** ﴾[1] فتأتى الإجابة : ﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه** ﴾[2] .

اللهم ثبت قلوبنا على الإيمان والإسلام واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

---

(١) سورة الأنبياك [٨٩] .

(٢) سورة الأنبياء [٩٠] .

الثبات على المبدأ

إذا علمنا أن النفاق والرياء هما من الأمراض الخطيرة التى تهدم الأمم وتقوض المجتمعات بل من أشدها خطرا .. فما العلاج ؟ وما السبيل إلى البناء القويم لهذه المجتمعات ؟ لم أجد أنجح ولا أنفع فى بناء المجتمع : أفضل من الثبات على المبدأ ، وأعنى به : مبدأ الحق والشرف والرجولة والاعتزاز بأوامر الله وطاعة رسوله ، ذلك لأن النفس لا تنحدر إلى الهاوية إلا إذا نسيت مبدأها وخانت عهودها . عندئذ تتمرغ فى ماديات مظلمة تتيه فى بيداء هذه الحياة . ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك : قصة ثعلبة بن حاطب : الرجل الذى نسى مبدأه وخان عهده ، كان يلقب بـ « حمامة المسجد » وكفى بهذا اللقب شهادة له بحسن المواظبة وأداء الصلوات فى أوقاتها .. ماذا حدث لتلك « الحمامة » ، وماذا جرى لثعلبة ؟ رووا أنه أتى مجلسا من مجالس الأنصار فأشهدهم : لئن آتانى الله من فضله : آتيت منه كل ذى حق حقه ، وتصدقت منه ، ووصلت القرابة . فمات ابن عم له ، فورث منه مالا ، فلم يف بشىء مما عاهد الله عليه ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب** ﴾[1] ؟!!

أرأيت إلى هذه العاقبة الوخيمة التى مُنى بها ذلك الذى نسى أصله ، وخان عهد الله ؟! كان كل مطلبه الدنيا وما فيها من زخارف خداعة ، وبوارق لامعة .. أقبلت عليه فنسى ربه ! وبعد أن كان « حمامة » تأوى إلى بيت الله فتأنس بذكره : قصَّت أجنحتها فتمرغت فى أوحال الدنيا .. وهكذا الدنيا : إذا حلت : أوحلت ، وإذا كست : أوكست وإذا جلت : أوجلت ، وكم من ملك رفعت له علامات ، فلما علا : مات !!

(١) سورة التوبة [آية ٧٥ ، ٧٨] .

عظة وعبرة

كذلك من الدروس التى يجب أن يعيها المجتمع فى الثبات على المبدأ : ألا يتنكر الإنسان لفضل الله عليه ، فيمنع النعمة أصحابها ، ويصير بذلك كنودا آثما . لقد روى أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى . أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص ، قال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ، فمسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطى لونا حسنا ، وجلداً حسناً ، فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ، فأعطاه ناقة عشراء ، وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطى شعراً حسناً ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملا ، وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يردَّ الله علىّ بصرى ، فمسحه ، فرد الله عليه بصره . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة والداً . فأنتج هذان ، وولد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم ، ثم إنه ــ أى الملك ــ أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى . فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيرا أتبلغ به فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، قال : إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت .. وأتى « الأقرع » فى صورته فقال له مثل ذلك ، ورد عليه مثل الأول ، فقال : إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت .. ثم أتى « الأعمى » فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال ، فقال : كنت أعمى فرد الله على بصرى فخذ ما شئت ، ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم لشىء أخذته لله ! فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتُليتم ، فقد رضى عنك وسخط على صاحبيك ! » .

إن هــذه تــذكــرة

إن من أعظم الوصايا الغالية التى وصى بها رسول الله ـ ﷺ ـ قوله : « **احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة . إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله** » . أجل يا سيدى يا رسول الله ! يا صاحب الثبات على مبدأ الحق ! يا من وصفت المؤمن الصحيح فقلت : « **عجبا لأمر المؤمن : إن أمره كله هو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر : فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر : فكان خيرا له** » .

وإننى إذ أبرهن على هذه المبادىء الحقيقية : أسوق هذه الدروس أمام المسلمين ليجدوا فيها العظة . إنها دروس على ثلاثة نفر وقعوا فى شدة فنجاهم الإخلاص . لقد ثبتوا مع الله فى طاعته ساعة الرخاء . فتعرف الله عليهم ساعة الشدة : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما ، وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فاخرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا ، لا يستطيعون الخروج منه . وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىَّ** ـ وفى رواية : كنت أحبها ـ **كأشد ما يحب الرجل النساء ، فأردتها على نفسها ، فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتنى ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها ، وفى رواية ، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها**

وهى أحب الناس إلىَّ وتركت الذهب الذى أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .. وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فأثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين ، فقال : يا عبد الله ، أدِّ إلىَّ أجرى ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله لا تهزأ بى ، فقلت : لا أهزأ بك ، فأخذه كله فاستاقه ، فلم يترك منه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون » [متفق عليه] .

هل وقفت على الدور العظيم الذى قام به الإيمان فى بناء النفوس ؟ لا عجب فإن الإيمان هو صانع المعجزات ، وبانى النفوس ، فلولا الإيمان ما كانت الأمانة ، وما كانت خشية الله ، وما كان البر فى جميع صوره ، ولكنه سر من أسرار الله جلت قدرته ، يعمر به النفوس ، فتضىء وتشرق وتتلألأ وتتألق ، حتى تصير كالشمس فى ضحاها والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

من هذا كله نعلم أن القلوب هى المركز الأول الذى ينبنى عليه صلاح الفرد ، وينبنى عليه صلاح المجتمع . والمؤمنون الصادقون إنما هم أعلام شامخة الرؤوس مشرئبة الأعناق لأنهم معتزون بالله يجعلون وجهتهم إليه سبحانه ، يعلمون أنه جلَّ جلاله هو المتولى شئونهم . فإذا سألوا أو استعانوا سألوا الله وطلبوا العون منه ، لأنهم يعلمون أنه تعالى أقرب إلى العبد من حبل الوريد . فاللهم أعط نفوسنا تقواها ، وزكّها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الإيمان وبناء النفوس

إذا كان الإيمان هو التصديق القلبى ، فلنعلم أن القلب هو محله .. بهذا نطق الكتاب الكريم . قال تعالى : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان** ﴾[1] . وقال جلَّ شأنه . ﴿ **وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾[2] . وقال سبحانه ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم** ﴾[3] . فهل وقفت على الدور العظيم الذى قام به الإيمان فى بناء النفوس ؟

إنه تحرير لتلك النفوس من ماديات الحياة التى تصرفها عن طريق الجادة ، عن الصراط السوى فترى الحقيقة العليا واضحة جلية تحميها من التخبط فى دياجير الظلام . إنه يشيد النفوس على أساس الحق ويزكيها بالصلاح والطهر فيجعلها نفوسا مطمئنة تملأ الكون أمنا وسلاما ورحمة ووئاما وإعزازا وإكراما .

إنه يجعل النفوس صاحبة عقيدة راسخة البنيان وطيدة الأركان لا تعبأ بكوارث الأيام وشدائد الحياة ولا تنوء تحت الهموم الثقال لأنها تحمل بين جنبيها عقيدة الحق وتوقن دائما أن هذا الكون لا تهب فيها نسمة هواء ولا تطرف فيه عين ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن الله : ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار** ﴾[4] .

لا عجب فإن الإيمان هو صانع المعجزات وبانى النفوس . فلولا الإيمان ما كانت الأمانة وما كان الإخلاص وما كان الوفاء بالعهود وما كانت خشية الله ، وما كان الثبات على المبدأ وما كان البر فى جميع صوره . إنه سر من أسرار الله جلَّت قدرته تعمر به النفوس فتضىء وتشرق وتتلألأ وتتألق حتى تصير كالشمس فى ضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلَّاها : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان**

---

(١) سورة المجادلة [آية ٢٢] .
(٢) سورة النحل [آية ١٠٦] .
(٣) سورة الحجرات [آية ٧] .
(٤) سورة الرعد [آية ٨ ــ ١١] .

تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[1]. فاللهم أعط نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. من هذا كله نعلم ـكما أسلفنا ـ أن صلاح القلوب ينبني عليه صلاح الفرد، وينبني على صلاح الفرد صلاح المجتمع.. وإنما يؤدى الإيمان ثمرته المرجوة ويؤتى أكله إذا كان الإنسان مستشعرا عظمة الله وهيمنة سلطانه.

نعم : مستشعرا ذلك فى سره وعلانيته ، حيث ينطق الحديث الشريف بهذه الحكمة النبوية : « **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** » .. والإيمان إذا حل قلبا ملأه خشية ومعرفة . قال سبحانه : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[2] .. نعم لا يتوكلون على غيره لأنه وليهم : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم** ﴾[3] .. إن هؤلاء المؤمنين قد حققوا أعلى درجات العزة والكرامة ، لأنهم معتزون بالله مؤمنون به : ﴿ **من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه** ﴾[4] . وهم يجعلون وجهتهم إليه سبحانه ، يعلمون أنه جلا جلاله هو المتولى شئونهم ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾[5] .

إن الإيمان يجعل المسلم دائما رافعا رأسه إلى أعلى فى عزة وإباء لأنه إذا سأل سأل الله وطلب العون منه وإذا استعان استعان بالله.. لذلك نلمح هذه الإشراقة المضيئة فى القرآن الكريم عندما يعرض للمسائل التى كانت توجه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ طلبا للبيان والمعرفة: فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿**يسألونك عن الأهلة : قل هى مواقيت للناس والحج**﴾[6]، ﴿**يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾[7]، ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله**﴾[8]، ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر؟ قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**

---

(١) سورة الأعراف [آية ٢٠١] .
(٢) سورة الأنفال [آية ٢] .
(٣) سورة آل عمران [١٧٤ ، ١٧٥] .
(٤) سورة فاطر [آية ١٠] .
(٥) سورة البقرة [آية ٢٥٧] .
(٦) سورة البقرة [آية ١٨٩] .
(٧) سورة البقرة [آية ٢١٥] .
(٨) سورة البقرة [آية ٢١٥] .

ويسألونك: ماذا ينفقون قل العفو ﴾[1] . ﴿ **ويسألونك عن اليتامى ؟ قل إصلاح لهم خير** ﴾[2] ، ﴿ **ويسألونك عن المحيض ؟ قل هو أذى** ﴾[3] ، ﴿ **يسألونك عن الجبال ؟ فقل ينسفها ربى نسفا** ﴾[4] .

فأنت ترى فى الإجابة عن هذه الأسئلة تصديرا بكلمة « قل » ، إلا فى قوله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب** ﴾[5] فإنها قد خلت من كلمة « قل » فلم تقل « فقل إنى قريب » وإنما قالت : ﴿ **فإنى قريب** ﴾[6] . وفى ذلك من قوة القرب إلى الله وشدة علمه وإحاطته ما يجعل المؤمن يتوجه إلى ربه دائما فى السراء والضراء وحين البأس .

بهذا الإيمان : تبنى النفوس على الكرامة والعزة ، وتشيد صروحها على المعرفة والأمانة ، لأنها دائما فى حال مراقبة أو مشاهدة : « اعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وليس ثمة أدنى شك أن القلوب المؤمنة فى حالة ذكر لربها لا تعرف الغفلة .. أسمعت إلى نوح ـ عليه السلام ـ عندما اشتد به الكرب وزاد عليه عناد قومه ، واتهم بأنه مجنون وازدجر ، ماذا قال ؟ ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾[7] .

ثم أرأيت إلى أيوب ـ عليه السلام ـ فى مرضه وشدته وكربه ومحنته يتوجه إلى خالقه فيقول : (مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) . فيكون الجواب : ﴿ **فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** ﴾[8] .

ثم استمع إلى صاحب الحوت : يونس ـ عليه السلام ـ وهو فى بطن الحوت وفى ظلمة البحر وأعماقه ينادى ويهتف : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت**

---

(١) سورة البقرة [آية ٢١٩] .
(٢) سورة البقرة [آية ٢٢٠] .
(٣) سورة البقرة [٢٢٢] .
(٤) سورة طه [١٠٥] .
(٥) سورة البقرة [آية ١٨٦] .
(٦) سورة البقرة [آية ١٨٦] .
(٧) سورة القمر [آية ١٠ ـ ١٢] .
(٨) سورة الأنبياء [آية ١٨٤] .

من الظالمين ﴾[1] فتأتى الإجابة أسرع من البرق : ﴿ **فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾[2] .

وها هو ذا زكريا ـ عليه السلام ـ يريد ولدا صالحا وغلاما رضيا ، فيتوجه إلى الله : ﴿ **رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين** ﴾[3] فتأتى الإجابة : ﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه** ﴾[4] .

ثم اسمع إلى مؤمن آل فرعون ـ بعدما بذل النصح والتوجيه وبين الطريق السوى ـ يقابل من قومه بما لا يليق بالناصحين المخلصين فيقول لهم : ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد** ﴾[5] . فتأتى الإجابة والنجدة من رب العزة الذى يغيث الملهوفين : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾[6] .

وهكذا أخى المؤمن إذا أردت أن تعيش مطمئنا عزيزا قويا فعليك بالإيمان . وإذا أردت أن تعيش آمنا بنفس مستقرة ثابتة تجاه تيارات الحياة وعواصفها فعليك بالإيمان . يا رب : أنت الذى تهب الكثير وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات ، وتقول هل من تائب مستغفر ؟ أو سائل أقضى له الحاجات . فاللهم اهدنا سبل الرشاد واجعلنا من عبادك المخلصين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير وعلى آله وصحبه وسلم ..

---

(١) سورة الأنبياء [الآية ٨٧] .
(٢) سورة الأنبياء [آية ٨٨] .
(٣) سورة الأنبياء [آية ٨٩] .
(٤) سورة الأنبياء [آية ٨٩] .
(٥) سورة غافر [آية ٤٤] .
(٦) سورة غافر [آية ٤٥] .

بناء النفوس ووحدانية الله تعالى

أيها القارىء الكريم : إذا أيقن العبد بربه ، وعرف حقه من الوحدانية الخالصة استقرت نفسه ، وثبتت تجاه تيارات الحياة وعواصفها بكل بروقها ، ورعودها ورياحها ، ورمالها .. ومن ثم ؛ فإن القرآن الكريم يفتح مدارسه المباركة ليوجه إلى القلوب أضواء الوحدانية ودلائل القدرة ، حتى يبنى النفوس بناء سليما ، ويشيدها على تقوى من الله ورضوان . ولسوف نعرض الآن لبعض هذه المدارس فى سورة « النحل » لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته .. ففى سورة « النحل » نطقت الأدلة بوحدانية الله وقدرته فى شتى المجالات الكونية والآفاقية والأنفسية شوامخ راسيات ، ورواسى ثابتات لا تحركها العواصف ولا تؤثر فيها الرياح القواصف .

اسمع معى إلى القرآن الكريم وهو يبدأ هذه السورة بهذا الإنذار الذى يدعو كل عبد للاستعداد إلى لقاء الله . فلقاء الله حق واقع . ولتوكيد وقوعه : عبر عنه بلفظ الماضى ، كأنه قد وقع ، لأن الله لا يُخلف وعده : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾[(1)] ، ثم يذكر بعد هذه الآية طريق الوحى الذى تتنزل به الملائكة ، وأنه كالروح يحيى الموات وينزل غضًّا نديًّا يتقاطر نورا ورحمة ، ليعلم البشرية جمعاء أنه لا معبود بحق إلا الله فيقول سبحانه ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون** ﴾[(2)] . ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله حين أعلنت قولك : « **أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله** » .

وبعد ذلك تأخذ السورة الكريمة طريقها فى ذكر حشد من الأدلة المتنوعة والناطقة بالوحدانية والقدرة ، فيقول سبحانه : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون** ﴾[(3)] . ففى هذه الآية المباركة يذكر أن العالم من عرشه إلى فرشه ،

---

(١) سورة النحل [آية ١] .
(٢) سورة النحل [آية ٢] .
(٣) سورة النحل [آية ٣] .

ومن سمائه إلى أرضه : مخلوق بالحق ، لا لهوا ، ولا باطلا ، ولا عبثا ولا لعبا ، وإنما بالحق قامت السمٰوات والأرض : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ وتعالى الله وجل جناب الحق أن يكون له شريك يناقشه الحساب ، فهو الواحد العادل الحكيم المريد .

وبعد ذكر العالمين : العلوى والسفلى ، ينتقل إلى خلق الإنسان فيقول سبحانه : ﴿ خلق الإنسان من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين ﴾[1] . فالإنسان سر الله فى أرضه ، ومعجزته التى حارت الأفكار فيها ، ولذا يقول أحد الحكماء عن الإنسان :

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى ... بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر !

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق ! ﴾[2] . فماذا كان من الإنسان بعد ذلك ؟ قف يا أخى وقفة تدبر وإعمال فكر فى هذا النص المبين : (فإذا هو خصيم مبين) : يقول علماء اللغة : إن « إذا » حرف يفيد المفاجأة فهو بذلك يدل على أن خروج الإنسان من أصله اللائق به نحو الله : يعتبر أمرا غير مألوف ، فما كان ينبغى من الذى خُلق من نطفة معينة أن يفاجىء بالخصومة المبينة . والخصومة لِمنَ ؟! لخالقه ورازقه ومنشئه :

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس ماذا فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
ياابن التراب ومأكول التراب غداً ... أقصر فإنك مأكول ومشروب

يقول تقى الدين الحسن البصرى : عجبت لابن آدم يتكبر على الأرض وهى التى تناديه بلسان حالها : يا ابن آدم : لا تتكبر على ظهرى ، لأننى غدا سأضمك فى بطنى ! كيف يتكبر ابن آدم وهو الذى أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة ، وهو ما بين هذا وذاك يحمل فى بطنه العذرة ؟ تؤذيه بقة ، وتنتنه عرقه ، وتميته شرقة ؟.. كيف تعلن الخصومة على الله يا ابن آدم وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين : مرة وأنت ماء مهين من أبيك ، وأخرى وأنت طفل من رحم أمك ؟ عليك أن

---

(١) سورة النحل [آية ٤] .

(٢) سورة الطارق [آية ٥ ، ٦] .

تذكر هذا ولا تنسين أنك حفنة من التراب فى البداية والنهاية : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[1] .

ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابر
هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر ؟
فأشارت .. فإذا للدود عبث فى المحاجر
ثم قالت : أيها السائل .. إنى لست أدرى
انظرى : كيف تساوى الكل فى هذا المكان
وتلاشى فى بقايا العبد رب الصولجان
والتقى العاشق والقالى .. فما يفترقان
أبهذا ينتهى الأمر ؟ فقالت : لست أدرى
أيها القبر تكلم وأخبرينى يا رمام
هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام
من هو الميت من عام ومن مليون عام
أتمنى أننى أدرى ولكن لست أدرى

---

(١) سورة طه [آية ٥٥] .

عالـم الحيـوان

وتنتقل بنا الأدلة من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان المسخر له بإذن الله ، فيقول جل شأنه : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون** ﴾[1] .

هذه أنواع من المخلوقات اشتملت على فوائد عديدة ، لها جليل الأثر فى حياة الإنسان ، حتى أن القرآن الكريم ـ لكثرة ما فيها من فوائد ـ أشار إلى بعضها : ففيها دفء فى أصوافها وأوبارها وأشعارها ، وفيها اللحوم التى تؤكل ، وفيها الركوب على ظهورها ، وحمل الأثقال التى لا طاقة لنا بحملها ، وفيها الفوائد المعنوية ، وهو ذلك الجمال فى رواحها وسروحها ، وفيها الزينة إذا وقعت العين على رؤيتها واستمعت الأذن إلى أصواتها من رُغاء وثغاء . وغير ذلك .

ولما كانت فوائدها لا تحصى ولا تستقصى فقد أجملها القرآن فى قوله : (ومنافع) . ولك بعد ذلك أن تقول فى هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد ، مما يطول شرحه ويكثر ذكره .

سبحانك ربى :

عجز اللسان عن الثناء فإنه ... تتصاغر الأفكار دون مداه
من كان يعرف أنك الحق الذى ... بهر العقول فحسبه وكفاه

اللهم صل على سيدنا وحبيبنا ونور قلوبنا المبعوث رحمة للبشرية جمعاء واعطه الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد ..

---

(١) سورة النحل [آية ٥ ـ ٨] .

عالم الفلك

ما زلنا نواصل جولتنا فى سورة النحل لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة على وحداينة الله تعالى لبناء النفوس بناء سليما على تقوى من الله ورضوان .

ينتقل بنا النظم الكريم إلى عالم الفلك ، فيقول جلّ شأنه : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[1] وفى لفظ « التسخير » ما يدل على منتهى التذليل والتطويع ، دون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله .. وفى قوله تعالى : ﴿ **والنجوم مسخرات بأمره** ﴾[2] إشارة عجيبة ، فإنها جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر ، وإن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والإبداع .. فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الضخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق بها كلماته ، وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟. إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، و لم يصل العلم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف ، فإن العلم لم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدراك ، وأكثر مما يتخيله العقل . ففى كل مرة يصل العلم عن طريق أجهزة أكثر دقة وأشد حساسية وأبعد رصداً ، إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة . وما زال العلم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد .

ويحدثنا عن عدد النجوم حجة الفلك العالمى السير « جيمس جينز » فى كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون

---

(١) سورة النحل [آية ١٢] .
(٢) سورة النحل [آية ١٢] .

قريبا من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله » .

ويقول كذلك فى كتابه : « النجوم ومسالكها » : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجما مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله » . ثم يضرب لذلك مثلا فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عددها مساو تقريبا لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى كل يوم ، فلابد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لاستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة .

أما الأرض التى نعيش عليها ، فهى أقل من نقطة على حرف مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة .

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم ـ وهى شموس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الإنسان بأجهزته ـ فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟.

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية ـ التى تتكون من ٣٦٥ يوما ، فى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة ، وفى الدقيقة ٦٠ ثانية ـ لقياس أبعاد النجوم . فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة ، كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل . وقد وجد أن السُّدُم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى

معها حقيقة : هي أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض وأن آخر مارصد من السدم وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل فى الثانية ، فمتى بدأ فى حركته ؟ ومتى يقف ؟ وإلى أين ينتهى ؟!!

وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوؤه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية فعلى أى بُعد يقع ؟ وأين أصبح الآن ؟ وتعتبر هذه الأرقام : الوحدات فى بداية الكون .. فقد أظهرت بحوث العلماء أن هناك من السدم مالم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين اشعاعها ، وأمر هذا الوجود ليس عجيبا فى عدد النجوم والكواكب والمسافات التى تفصل بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذى ظلَّ العلماء فى عجب وحيرة منه هو أمر إشراق النجوم .. إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم والتى يرجح العلماء أنها تصل إلى عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التى نعرفها ؟. ولكن كيف لا تخمد ؟ حتى لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة ، بل كل شهر . حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة ، لكان يكفى ملايين السنين ــ التى مرت منذ القدم ــ أن تصبح النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت : ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك ، فقيل إن السبب هو وجود عناصر مشعة فى النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيرا ، ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ، ثم بالانفجار الأيدروجينى فى تبرير حرارة الشمس وعدم تغيرها . وما زال العلماء فى أبحاثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة ، وهو : كيف لا تفنى كتلة النجم ؟ إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة ..

سبحانك ربى ! يا من قلت : ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنعام [آية ٩٧] .

يا من يحار الفهم فى قدرتك وتطلب النفس حمى طاعتك ، تخفى عن الناس سنا طلعتك ، وكل ما فى الكون من صنعتك ! يا مبدع الكائنات ! يا من كل فعلك حكمة بالغة يا من قلت وقولك الحق : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون** ﴾ ويا من قلت : ﴿ **وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[2]

---

(١) سورة الأنبياء [آية ٣٣ ــ ٣٦] .

(٢) سورة فصلت [آية ١٢] .

عالم النبات

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة بعد ذلك إلى الأرض وما بها من نبات وزروع ، وما احتوته فى بطنها من معادن مختلفات ، فيقول سبحانه : ﴿ **وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكّرون** ﴾[1] ، ولقد جاء الأسلوب فى هذه الآية الكريمة بلفظ « ما » الذى يدل على العموم والشمول للاشارة إلى ما فى الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل . وكل أولئك ملك لله تبارك وتعالى : ﴿ **له ما فى السمٰوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى** ﴾[2] .

سبحانك ربى يا من قلت : ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾[3] .

ما فى الوجود سواك رب يعبد كلا ، ولا مولى سواك فيُقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ذلا ، وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد ، الفرد الذى كل القلوب له تقر وتشهد

كيف ننكر فضلك وآياتك حولنا تفيض نورا وبهاء ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبًّا . متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾[4] . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم المبعوث رحمة للبشرية جمعاء وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

---

(١) سورة النحل [آية ١٣] .
(٢) سورة طه [آية ٦] .
(٣) سورة طه [آية ٥٣ ، ٥٤] .
(٤) سورة عبس [آية ٢٦ — ٣٣] .

الحث على العمل وزيادة الإنتاج

لقد صدقت يا سيدى يا رسول الله وأنت الصادق الأمين عندما تحث البشرية أن تضرب في مناكب الأرض تطلب الرزق . فقلت : « **التمسوا الرزق فى خبايا الأرض** » .

ولئن كان علماء الاقتصاد قد أفاضوا فى الكلام عن الانتاج والاستهلاك فإن القرآن العظيم أوجزهما فى آيات كريمات منها : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون** ﴾[1] . فمصدر الانتاج قوله جل شأنه « الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا » ومبدأ الاستهلاك تشير إليه الآية فى هذه العبارة : (فمنه يأكلون) .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

عالم البحار

وبعد استعراض عالم النبات وما فيه من أسرار عجيبة وحقائق علمية تجعل المتمعن فيها يخر لله ساجدا ، ينتقل بنا النظم الكريم إلى عالم البحار .. ذلك الخلق العظيم الذى جاء فى وصفه قول القائل : « هو خلق عظيم ، الداخل فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، إذا هاج هز القلوب وأفزع النفوس » .

ويبين القرآن الكريم حال الناس فى البحر . فيقول سبحانه : ﴿ **حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من**

---

(١) سورة يس [آية ٣] .

كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعووا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[1] .

هذا الخلق العظيم مسخر ومذلل ومنقاد ومذعن لخالقه الذى سخره .. يقول جلَّ شأنه : **﴿ وهو الذى سخَّر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾** .

سبحانك ربى :

لما علمتُ بأن قلبى فارغ ممن سواك ملأتَه بهداك
وملأت كلى منك حتى لم أدع منى مكانا خاليا لسواك !!

فتأمل معى هذه العظمة الإلهية التى دبرت الأمور بإحكام ، ونظمت الكون بإتقان ، كيف استطاع الحيوان أن يعيش فى الماء ؟ وكيف تغذى على النباتات ؟ وماذا يقول العلم فى شرح العناية الإلهية فى عالم البحار ؟

إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية : أن جميع المواد إذا ما تجمدت زادت كثافتها ــ فيماعدا الماء ــ فإنه المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة ، إذ تقل كثافتها عند التجميد .. لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح ، مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى .

وقد لا يتصور الإنسان ــ لأول وهلة ــ إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى كيف يكون الأمر ؟ فعندما يغوص الجليد فى البحار . فإنه لا سبيل إلى إذابته ، كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى . فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يُكوِّن طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته ، فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك . وهكذا تختلف القوانين العلمية ، وتتناقض الحقائق المرئية ، وليس من هدف إلا قيام الحياة وتدبير أمورها وتيسير سبلها .. أليس فى ذلك الرد ، أبلغ الرد ، على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

---

(١) سورة يونس [آية ٢٢] . (٢) سورة النحل [آية ١٤] .

فوا عجبا : كيف يعصى الإله   بل كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد ؟

ماذا يقول المكابرون فى هذه الآيات الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ إنه الله القائل : ﴿ **وخلق كل شىء فقدَّره تقديرا** ﴾[1] والقائل : ﴿ **وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾[2] والقائل : ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾[3] .

هل تستطيع الطبيعة الصماء ، وهل تقدر الصدفة العمياء أن توجد وأن تدبر وأن تحكم الخلق أو تنظم ؟ ﴿ **سبحانك ! هذا بهتان عظيم** ﴾[4] . يا من قلت وقولك الحق : ﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، وكانوا لا يستطيعون سمعا** ﴾[5] . ويا من قلت : ﴿ **وإن يَرَوْا كل آية لا يؤمنوا بها** ﴾[6] . ويا من قلت : ﴿ **وإن يَرَوْا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾[7] .

إن الوجود كله صفحة متقنة الإبداع ، تقر وتشهد بالحق أن لها خالقا مبدعا حكيم مريدا : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائرُ من ربكم : فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾[8] .

---

(١) سورة الفرقان [آية ٢] .
(٢) سورة الرعد [آية ٨] .
(٣) سورة القمر [آية ٤٩] .
(٤) سورة النور [آية ١٦] .
(٥) سورة الكهف [آية ١٠١ ، ١٠٢] .
(٦) سورة الأنعام [آية ٢٥] .
(٧) سورة القمر [آية ٢] .
(٨) سورة الأنعام [١٠٣ ، ١٠٤] .

عالم الجبال

ثم ينتقل بنا القرآن العظيم إلى عالم الجبال ، وما فى الأرض من أنهار وسبل وعلامات للاهتداء فى متاهات الرحاب الواسعة ، قال جلّ جلاله : ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون** ﴾[1] .. إنها عمارة الكون ، تنطق بالقول السديد والبرهان الرشيد :

سبحان من أحيا قلوب عباده بلوائح من فيض نور هداه
فالعارفون مشاهدون لفضله مستأنسون بذكرهم إياه

من الذى أودع هذه العلامات للارشاد فى الصحارى الشاسعة والوهاد المترامية ؟ إنه جلّ فى علاه !

وبعد سوق هذه الأدلة ووضوحها ونظمها فى هذا المسلك الرائع والإتقان البديع ، يسوق القرآن هذا السؤال لكل عامل بصير ، فليس المقصود بالسؤال استفهاما .. فإن الاستفهام محال فى حق الله ، إذ هو طلب الفهم ، وهو يفيد الجهل بالشىء المستفهم عنه ، وجلّ جناب الحق أن يعزب عنه شىء فى الوجود كله ، إنما المقصود بالاستفهام هنا فى قوله تعالى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكّرون** ﴾[2] : هو الإنكار الذى يفيد النفى : أى ليس من يخلق كمن لا يخلق فهذا لمجرد التذكرة ، وعلى كل عاقل أن يفهم ذلك ويتدبره ، فإن ذلك من الأمور البديهية ، ومن الشئون الواضحة الجلية ، كالشمس فى ضحاها وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية .

جلت حكمتك يا حكيم ، أنت الخالق المبدع المصور ، لا شريك لك فى ملكك :

يا حبيب القلوب : هب لى رضاك وارحم اليوم مذنبا قد أتاك
ويا إلهى وخالقى ومرادى قد أبى القلب أن يحب سواك

---

(١) سورة النحل [آية ١٥ ، ١٦] .

(٢) سورة النحل [آية ١٧] .

نعم الله على خلقه

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات من عالم السماوات والأرض وعالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات ، وعالم الفلك ، وعالم البحار ، وعالم الجبال والأنهار ووسائل الإرشاد فى المتاهات ، وما فى الأرض من مكنون الخزائن .. قال القرآن الكريم بعد ذلك : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم** ﴾(1) .

إن الذى أوجد هذه الكائنات العظمى ، لابد وأن يكون متصفا بالعلم الشامل الكامل ، ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جلّ شأنه : ﴿ **والله يعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾(2) .

ولقد بلغ من جهل الكافرين أن قال بعضهم لبعض : من أراد أن يتكلم فى شأن محمد - ﷺ - فليكن ذلك سراً حتى لا يسمع إلٰه محمد ما نقول فيخبره به !! فماذا كان الموقف ؟.. لقد هبط سفير الأنبياء جبريل - عليه السلام - بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾(3) ؟!

الله يرى كل ما تضمر ويعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

وحيث قد ثبت أن الله هو الخالق وحده ، العالم بكل شىء ، فإن غير الله لا يخلق . لأنه لا يملك الإيجاد من العدم .. ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله : ﴿ **والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيّان يبعثون** ﴾(4) .

فاللهم اجعلنا من الحامدين لنعمك الشاكرين لفضلك الموقنين دائما بوحدانيتك وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا .

---

(1) سورة النحل [آية ١٨] .
(2) سورة النحل [آية ١٩] .
(3) سورة الملك [آية ١٤ ، ١٥] .
(3) سورة النحل [آية ٢٠ ، ٢١] .

العلم الحديث ووحدانية الله تعالى

يا من يرى مدَّ البعوض جناحه   في ظلمة الليل البهيم الأَلْيَل
ويرى نياط عروقها في نحرها   والمخ في تلك العظام النُحَّل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها   في قاع بحر زاخر مُتَجندل

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الأبيات للإمام الزمخشرى وهو يناجى ربه فأقول : سبحان الله ! ما هى تلك البعوضة التى لها عروق ، ونحر ، ومخ ، وعظام ! إلى أن قرأت هذا البحث العلمى الذى يقوم به البروفوسير « أردين ليا » الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية .. فاسمع إليه يقول الخبر بالحرف الواحد :

يقوم الدكتور « أردين ليا » من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على مخ البعوضة تحت الميكروسكوب ، مستخدما أدوات جراحية دقيقة ، مثل التى يستعملها صانعو المجوهرات ، وذلك لمساعدة العلماء فى السيطرة على أخطار هذه الحشرات ، ولا تستغرق الجراحة التى يقوم بها الدكتور « ليا » أكثر من ٥ دقائق ، وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع « المرضى » من البعوض الطيران .

ويقول الدكتور « ليا » ـ أستاذ علم الحشرات وطبائعها ـ بدراسة نظام الهيرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذى ينتشر فى المستنقعات . وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملا هاما فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها . وأثناء العملية يقوم الدكتور « ليا » بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا (إفرازات الأعصاب) من مخ البعوضة ، وكذلك بعض الغدد من الرقبة ، وقد وجد الدكتور « ليا » أن البعوضة لا يمكنها بعد ذلك وضع البيضة . فإذا كان هذا شأن البعوضة التى ضرب القرآن بها مثلا فقال : ﴿**إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها**﴾[1] . فما بالك بهذه الخليقة

---

(١) سورة البقرة [آية ٢٦] .

وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ، ووقفت حيالها ـ واجمة ـ عبقريات العباقرة والمفكرين ؟! وهكذا أخذت الأدلة تتجلى فى تؤدة وثبات كأنها الجبال الشم والرواسى الشامخات إلى أن وصلت إلى حقيقة الحقائق وسر الأسرار . ألا وهى قضية التوحيد ، فقال سبحانه بعد ذلك : ﴿ **إلهكم إله واحد** ﴾[1] . فهذه القضية مركز الدائرة الذى تسبح حوله الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة . إنها قضية لا إلـٰه إلا الله .. فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله : دخل الجنة .. لا إلـٰه إلا الله أحلو بها وحدى ، لا إلـٰه إلا الله أفنى بها عمرى ، لا إلـٰه إلا الله يُغفر بها ذنبى ، لا إلـٰه إلا الله أدخل بها قبرى ، لا إلـٰه إلا الله ألقى بها ربى .

وقفة تأمل

اقرأ يا أخى هذه القضية مرة ومرة : ﴿ **إلهكم إلـٰه واحد** ﴾ ، ثم اقرء تعقيب الكتاب العزيز عليها يقول جل شأنه : ﴿ **فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين** ﴾[2] .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه لا إلـٰه إلا هو الواحد الأحد الفردُ الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك . كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك : ﴿ **أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **وإذا ذُكِرَ الله وحده ، اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾[4] .

وقوله : ﴿ **وهم مستكبرون** ﴾[5] : أى عن عبادة الله ، مع إنكار قلوبهم لتوحيده ، كما قال : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾[6] ، ولهذا قال هاهنا : (لا جَرَم) . أى حقا : ﴿ **أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾[7] . أى وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء : ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين** ﴾[8] .

---

(١) سورة النحل [آية ٢٢] .
(٢) سورة النحل [آية ٢٢ ، ٢٣] .
(٣) سورة ص [آية ٥] .
(٤) سورة الزمر [آية ٤٥] .
(٥) سورة النحل [آية ٢٢] .
(٦) سورة غافر [آية ٦٠] .
(٧) سورة النحل [آية ٢٣] .
(٨) سورة النحل [آية ٢٣] .

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن الأدلة على وحدانية الله واضحة لا غموض فيها ، جلية لا غبار عليها ، وأن الذين يقفون منها موقف الإنكار أو التشكك إنما ذلك راجع لمرض فى قلوبهم ، فقلوبهم منكرة جاحدة ، مظلمة عابسة ، وإن من أمراض هذه القلوب المنكرة : أنها تجحد حقائق الأشياء ، دون أن تبحث وتفكر ، وتمحص وتتدبر ، قال سبحانه : ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا أساطير الأولين** ﴾ . بكل هذه السهولة ، وبمنتهى التبجح تنكر الحقائق :

قدتنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

فاللهم أزل عن القلوب حجب الغفلة ، وبصرها بأمر دينها ودنياها .

ولا يظلم ربك أحدا

ما عاقبة أصحاب القلوب المنكرة فى الدنيا والآخرة ؟. أما فى الآخرة : فكما قال مولانا : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون** ﴾[1] . وأما عاقبتهم فى الدنيا ، فإنها كعاقبة الذين من قبلهم : تدمير وخسف . قال سبحانه : ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾[2] .

هذه عاقبة التكذيب والخيانة ، والكفر والجحود : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون . فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[3] .

وموقف هؤلاء المنكرين فى الآخرة أيضا : خزى وتأنيب . قال جلَّ شأنه : ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول : أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم** ﴾ ؟[4]

---

(١) سوة النحل [آية ٢٥] .

(٢) سورة النحل [آية ٢٦] .

(٣) سورة النحل [آية ١١٣] .

(٤) سورة النحل [آية ٢٧] .

عندئذ لا يستطيعون جوابا ولا تفسيرا . فمن الذين يقولون كلمة الحق الفاصلة ؟ إنهم أهل العلم ، قال جلَّ شأنه :﴿ **قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين . الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ، ما كنا نعمل من سوء ، بلى ، إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾[1] .

وبعد كل هذا : فإلى أين ينتهى المطاف ، وأين المستقر ؟ قال سبحانه : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾[2] .

وبعد هذا المشهد من مشاهد القيامة ، وبعد أن تقرأه بخشية وخشوع : قارن بين أصحاب القلوب المنكرة وبين أهل التقوى : فأصحاب القلوب المنكرة إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ؛ وأصحاب التقوى : موقفهم على النقيض من ذلك ، قال تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ **وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيرا** ﴾[3] ! .

شتان ثم شتان ، وهيهات ثم هيهات بين القولين : بين « أساطير الأولين » وبين كلمة « خيرا » ، كما أنه شتان بين العاقبتين : فعاقبة المتكبرين : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها » . هذا فى الآخرة . وفى الدنيا : ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخرَّ عليم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ .

وأما عاقبة المتقين فى الدنيا والآخرة فكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ، جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار ، لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزى الله المتقين** ﴾[4] .

اللهم آت نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكَّاها ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنك نعم المولى ونعم النصير ، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة لنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وعلى آله وأصحابه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين .

---

(١) سورة النحل [آية ٢٧ ، ٢٨] .
(٢) سورة النحل [آية ٢٩] .
(٣) سورة النحل [آية ٣٠].
(٤) سورة النحل [آية ٣٠ ، ٣١] .

فضل الله على عباده

من المواقف الطيبة التى يقف عندها العقل عاجبا فى سورة « النحل » أن الله سبحانه شاء بمنه وفضله أن يعطى الجزاء للمؤمنين فى الدنيا والآخرة . وقد جاء ذكره فى هذه السورة فى أربعة مواضع :

ـ الموضع الأول قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها ، تجرى من تحتها الأنهار ، لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزى الله المتقين** ﴾(1) .

ـ الموضع الثانى قوله جل شأنه : ﴿ **والذين هاجروا فى الله من بعدما ظلموا : لنبؤنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾(2) .

ـ الموضع الثالث قوله جل جلاله : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾(3) .

ـ الموضع الرابع قوله تعالى فى حق الخليل إبراهيم : ﴿ **وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾(4) .

سبحانك اللهم ! أنت ولىُّ المتقين ، وناصر المؤمنين .

ثم قارن بعد ذلك يا أخى بين حالتى الوفاة التى يصفها الكتاب العزيز :

فيقول فى حق المنكرين : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ، ما كنا نعمل من سوء** ﴾(5) .. ويقول فى حق المتقين : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون : سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾(6) .

---

(1) سورة النحل [آية ٣٠] .
(2) سورة النحل [آية ٤١] .
(3) سورة النحل [آية ٩٧] .
(4) سورة النحل [آية ١٢٢] .
(5) سورة النحل [آية ٢٨] .
(6) سورة النحل [آية ٣٢] .

نظرات وعـبر

وبعد هذه المقارنات بين المنكرين والمتقين ، نواصل هذه النظرات فى « سورة النحل » لنسجل الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة على وحدانية الله تعالى ، حيث ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى موقفين من أعظم المواقف الشاهدة على الوحدانية والقدرة ـ يقول سبحانه : ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة : نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين** ﴾[1] .. والمراد بالأنعام هنا : الإبل والبقر والغنم . وقوله : ﴿ **من بين فرث ودم لبنا خالصا** ﴾[2] أى يتخلص اللبن : بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم باطن الحيوان ، فيسرى كلٌّ إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدته ، فيصرف منه دم يجرى فى العروق ، ولبن يجرى فى الضروع ، وبول فى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه : لا فى لونه ، ولا طعمه ، ولا ريحه . فمن الذى ميز بين هذه الأشياء الأربعة : الدم ، واللبن ، والبول ، والروث ، وجعل لكل منها مسلكا خاصا ؟ أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟ كلا ! إنها مصانع الألبان من طراز « كن فيكون » : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾[3] .

وقوله : ﴿ **لبنا خالصا سائغا للشاربين** ﴾[4] : أى لا يغص به أحد ، مع اشتماله على عناصر غذائية ولذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أكل طعاماً يدعو فيقول : « **اللهم بارك فيما رزقتنا وزدنا خيرا منه** » ، أما إذا شرب اللبن فكان يقول : « **اللهم بارك فيما رزقتنا ، وزدنا منه** » .. من أجل ذلك كانت الهدية التى قدمها الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة الإسراء والمعراج : هى اللبن ، وبعد ما شربه قاله له الأمين ـ عليه السلام ـ: لقد اخترت الفطرة : أى الصفاء الذى لا تشوبه كدرة .

---

(١) سورة النحل [آية ٦٥] .

(٢) سورة النحل [آية ٦٥] .

(٣) سورة يسٓ [آية ٨٢ ، ٨٣] .

(٤) سورة النحل [آية ٦٦] .

وينتقل بنا النظم الكريم من « مصانع الألبان » إلى مصانع العسل الذى يخرج من بطون النحل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ، ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيها شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾[1] .

ونحن هنا نجمل القول فى هاتين الآيتين الكريمتين فى أربعة مباحث :

المبحث الأول : كلام المفسرين عنهما .

المبحث الثانى : ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته .

المبحث الثالث : تقرير الطب الحديث فى الشفاء الذى أودعه الله فى شراب النحل .

المبحث الرابع : الرد على أعداء الإسلام الذين وقفوا من آية الشفاء موقف المعاند المكابر .

---

(١) سورة النحل [آية ٦٧ ، ٦٨] .

المبحث الأول : كلام المفسرين عنهما

قال علماء التفسير فى هاتين الآيتين كلاما له وزنه وقيمته العلمية . قالوا : المراد بالوحى هنا : الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون . ثم إن هذه البيوت محكمة فى غاية الإتقان ، حيث بنيت على نظام المسدسات ، وهى أشكال هندسية بديعة ، بحيث لا يكون فى بنائها خلل ، ثم أذن لها إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذللة لها ، أى مسهلة عليها ، حيث شاءت من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة ، والأودية ، والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها ومالها فى من فراخ وعسل . فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتخرج العسل من بطونها ، وتبيض الفراخ من أدبارها ثم تصبح إلى مراعيها !!

وقاله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾[1] ما بين أبيض وأصفر وأحمر ، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منه .

وقوله : ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾ أى فى العسل شفاء للناس من داءات يتعرضون لها .

قال بعض من تكلم عن الطب النبوى : لو قال فيه الشفاء للناس : لكان دواء لكل داء ، ولكنه قال : فيه شفاء للناس ، أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة لأنه حار والشيء يداوى بضده . قال بعض العلماء فى الطب تعليقا على هذا الحديث الشريف الذى ثبت فى الصحيح حيث جاء رجل إلى النبى ـ ﷺ ـ وقال له : إن أخى استطلق بطنه ، فقال : « اسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقاً ، قال : « **اذهب واسقه عسلاً** »

(١) سورة النحل [آية ٦٨] .

فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا ! فذهب فسقاه عسلا فبرئ** » .

قال العلماء : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلا ـ وهو حار ـ تحللت ، فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالا ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه ، فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه وصلح مزاجه ، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ـ ﷺ ـ.

وقد روى البخارى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يعجبه الحلواء والعسل ، وفى هذا إشارة إلى ما فى العسل من القيمة الغذائية الكاملة ، كما ورد عنه ـ ﷺ ـ فيما رواه الإمام ابن ماجه فى سننه عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : « **عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن** » .

وآية الشفاء فى العسل قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾[1] .

وآيات الشفاء بالقرآن قوله تعالى : **﴿ يـٰأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ﴾**[2] . وقوله تعالى : **﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾**[3] وقوله جل شأنه : **﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾**[4] ، وقوله جلَّ ذكره : **﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾**[5] وقوله تعالى : **﴿ ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾**[6] .

وروى ابن ماجه أيضا أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **من لعق العسل ثلاث غدوات فى كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء** » .

ثم يقول المفسرون فى ختام هذه الآية : **﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾**[7] أى أن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك فى

---

(١) سورة النحل [آية ٦٨] .
(٢) سورة يونس [آية ٥٧] .
(٣) سورة الإسراء [آية ٨٢] .
(٤) سورة فصلت [آية ٤٤] .
(٥) سورة التوبة [آية ٦٩] .
(٦) سورة النحل [آية ٦٩] .

هذه الشواهق من الجبال والباثقات من الأشجار ، والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل ـ وهو من أطيب الأشياء ـ لآية لقوم يتفكرون فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

سبحانك اللهم ما خلقت هذا باطلا ، فقنا عذاب النار ، اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

نظرات .. وعبر «بقية»

المبحث الثاني : « ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته » :-

إن مملكة النحل عجيبة الصنع ، محكمة الإتقان . ولقد أراد الله سبحانه وت
توجيه نظر العباد إلى بيوت النحل - التى تعتبر أحسن مثل لهندسة المبانى وتع
أفراد النحل .. فيقول عزَّ من قائل فى سورة النحل : ﴿ **وأوحى ربك إلى النـ**
أن اتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ، ومما يعرشون ﴾[1] . وقد أثبت التـ
أن النحل اتخذ بيوته فى الجبال أولا ، ثم فى الأشجار ثانيا ، ثم فى الأعراش والـ
بعد ذلك .

ويقول العالم « موريس مترلنك » فى كتابه « حياة النحلة » : إنه سواء أخذ
النحل إلى حيث شاء أم وضعه النحل فى مكان جديد ، فإن العدد الأكبر منه يؤ
من نفسه - وهو متلاحق متماسك - ستارا مثلثا كثيفا أشبه بمخروط مقلوب رأ
ويظل مدة من الزمن تتراوح بين ١٨ ، ٢٤ ساعة على هذا الحال ، تظهر بـ
طبقات بيضاء شفافة تحت معدة كل نحلة ، وتكون جماهير غيرها قد تولت تـ
الأرض وإزالة القش وكافة المواد الغريبة ثم مسحها وسد الشقوق .. وفجأة
نحلة من المخروط المقلوب وقد انفصلت عن البقية ، وصعدت إلى أعلى موضع
البيت تنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدلية من بطنها ، وبأرجلها تد-
وتنشرها وتلصقها بأعلى نقطة فى البيت ، وبهذا تضع حجر الزاوية فى مدينة النحـ
ثم تغادر المكان حيث تحل غيرها مكانها لتضيف إلى حجر الزاوية قطعا من الشـ
ومتى بلغت سمك هذه القطعة الشمعية حد الكفاية ، خرجت نحلة من الجماعة
شكلا ، وتدل هيئتها على أنها مهندس قدير ، وهى لا تنتج شمعا ، فتأخذ فى الطـ
والوقوف ، ثم الطيران والوقوف ، فتحدد فى ذلك مواقع الغرف التى يقوم بـ
العمال .

---

(١) سورة النحل [آية ٦٧] .

وينشىء النحل أربعة أنواع من الغرف : هى الغرف الملكية ، وغرف الذكور ، ومخازن الطعام ، والغرف الصغيرة التى هى مهد للعمال والمخازن العادية ـ وهى تشغل أربعة أخماس الخلية ـ وغرف الانتقال للوصول بين الغرف وبعضها ؛ وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسدسة الأضلاع على قاعدة هرمية .. ويقول الدكتور « ريد » إنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكلة ، دون أن تكون هناك مسافات بينها لا فائدة منها ، وهذه الأشكال هى : المثلث المتساوى الأضلاع ، والمربع ، والمسدس المنتظم .. والمسدس أصلحها ، وهو ما يعمله النحل .

وقد عين « ماك لورين » الزاوية التى تلتقى عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد فوجد أنها هى نفس الزاوية التى يلتقى عندها فعلا سطح أرض غرفة النحل .

ويقول « مترلنك » : (ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية ، لا يسعنا إلا أن نطل على ذكر آية من آياتها ، هى الحجرة المسدسة ، التى تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق ، فلا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقريات البشر مجتمعة أية تحسينات . ولو أن أحدا من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة ، لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع) .

خبرنى بربك : فى أى الجامعات تخرجت هذه المخلوقات العجيبة ؟ وفى أى أقسام المعمار تخرج عباقرة المهندسين فى النحل ؟ وعلى أى الأساتذة درسوا علم التفاضل والتكامل ليخرجوا لنا أعظم انتاج بأقل تكاليف لازمة ؟ ومن الذى ألهمهم إلهام الغريزة أن يشيدوا تلك البيوت العجيبة : أهى الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟!.

والله ما هذا ولا ذاك ، وإنما هو الله العزيز الحكيم : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾[1] .

يقولون :

أيـن الله ، أيـن عجائبـه ؟ وذا الكون سفر ناطق، وهو كاتبه!

---

(١) سورة النحل [آية ٦٨] .

يشكُّون . والإيمان ملء قلوبهم ويبدون ما كل العقول تكذبه !
عجائب ربى فى الأنام كثيرة ولكن جهل المرء ـ لا شك ـ غالبه !

إن بيوت النحل إنما هى مصانع من طراز « كن فيكون » أبدعتها يد القدرة ، لتكون آية لقوم يتفكرون .

المبحث الثالث : ما يقرره الطب الحديث فى الشفاء بعسل النحل :

يقول عز من قائل : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾[1] .

اعلم يا أخا الإسلام أن هذا المشهد القرآنى الذى نحن بصدده ـ من أول قوله تعالى : ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرةً** ﴾[2] إلى قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه** ﴾[3] قد اشتمل على ثلاثة أنواع من الأغذية :

أولها : غذاء حيوانى : وهو اللبن .

ثانيها : غذاء نباتى ، وهو المتمثل فى قوله تعالى : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾[4] . وليس المراد بالسكر هنا المادة المحرمة ـ كما ذهب البعض إلى ذلك ـ لأن هناك فرق بين السُّكْر (بضم السين وسكون الكاف) وبين السَّكَر (بفتحتين على السين والكاف) . والذين ذهبوا إلى أن المراد بالسَّكَر فى الآية الكريمة هو المادة المسكرة ، ذهبوا إلى أن هذه الآية قد نُسخت بتحريم الخمر . ولكن النظرة الثاقبة تفيد أنها آية امتنان وتفضل من الله لا دخل لها بالسكر الذى يذهب بالعقول ، وبدليل أن الله جل شأنه عطف عليها بقوله ﴿ **ورزقا حسنا** ﴾[5] ، وبدليل أن ختام الآية جاء بـ : ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾[6] . فكيف يكون فى السُّكر آية للعقلاء ؟ وبدليل أن الآية توسطت آيتين اشتملتا على أعظم النعم هما : اللبن والعسل ، فلو لم تشتمل على نعمة مماثلة لهما فى الغذاء الحلال . ما توسطت هذا العقد الفريد .

وأخيرا : فهناك فرق بعيد بين السكر والسكر ، فلا داعى لأن نقول إن الآية قد نسخت وأن المراد بالسُّكْر هو المُسكر فالمراد السَّكَر ، فالمراد (بفتح السين الكاف) هو المادة السكرية العظيمة الموجودة فى ثمرات النخيل والأعناب .

---

(١) سورة النحل [آية ٦٨] .
(٢) سورة النحل [آية ٦٥] .
(٣) سورة النحل [آية ٦٨] .
(٤) سورة النحل [آية ٦٧] .
(٥) سورة النحل [آية ٦٦] .
(٦) سورة النحل [آية ٦٧] .

ثالثها : أنواع من الأغذية : غذاء حشرى وهو عسل النحل . فماذا يقول الطب فيه ؟ يقول إنه يحتوى على نوعين من السكر الجلوكوز والليفيلوز ـ وعلى أصماغ طبيعية وأصماغ النشا وعلى فيتامينات أ ، ب وفيتامين ج موجود ومركز بكمية كبيرة . كما يحتوى على بعض المعادن كالكالسيوم والبوتاسيوم ، ثم حامض النحل . ويحتوى كذلك على بيض النحل ، الذى يكاد لا يرى من صغر حجمه .

ولم يعرف قدر هذه الآية العلمية الطبية ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾[1] إلا فى السنين الأخيرة من القرن الحالى حيث تعتبر دليلا ما بعده دليل على معجزة القرآن العلمى فإن عسل النحل هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب . فهو يعطى بالفم ، وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ، ومغذيا ، وضد التسمم الناشىء من أمراض فى أعضاء الجسم ، مثل التسمم البولى والناتج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء ، وفى الحميات والحصبة والالتهاب الرئوى ، والسحائى ، وفى حالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد ، أى احتقان المخ والأورام المخية .

وإذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل من الأنسولين ـ حتى فى حالة التسمم الناشىء من مرض البول السكرى ـ علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره مصادفة ولكنه تنزيل من حكيم حميد .. وتفيد الأخبار الطبية أن الباحثة الأمريكية « جوليا تشرش » قد توصلت ـ بعد تجارب متعددة ـ إلى أنه توجد مادة مجهولة فى عسل النحل وشمعه ، لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ، ووجدت أن العسل المستخرج من القرص مباشرة دون أن يسخن أو يتعرض لأى معاملة صناعية ـ يقضى على تصلب الرسغين الذى يصيب بنى الإنسان .. هذا وقد اتجهت الأبحاث العلمية التى تجرى على النحل وعسله إلى دراسة سم النحل : إذا تقوم حاليا بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذى يفرزه عن طريق آلة اللسع لاستعماله فى معالجة بعض الأمراض المستعصية وفى أمريكا وانجلترا حالياً « مناحل » لا غرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله ، وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية ، وعرق النساء ، والرمد الحبيبى .

---

(١) سورة النحل [آية ٦٨] .

ومن الأخبار العلمية التى نشرت منذ سنوات أن أحد كبار الجراحين فى مستشفى « نورفولك » الانجليزى استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التى يجريها وذلك أن ثبت له أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح وإزالة آثارها فلا تترك تشويهات بعد العملية كما تبين له من التجارب التى أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد ، فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، ويقوم الطبيب المذكور برش العسل على موضع الجرح بصورة سائلة أو على هيئة حبيبات .

إلهى .. ما أعظمك : خبرنى بربك يا أخا الإسلام فى أى الجامعات تخرج محمد ابن عبد الله وعلى أى الأساتذه تلقى العلوم ؟ من الذى علَّم محمدا منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ما أذهل العقول وحير الأفكار ؟ إنه الله الذى قال له : ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلَّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾[1] .

فبينما العلماء المحدثون يجرون أبحاثهم ، وتتوارد الأنباء عن جهودهم ـ نرى ونقرأ القرآن الكريم منذ الآماد البعيدة يقول فى إيجاز معجز ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس** ﴾[2] ويقول خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه : « **عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن** » .

هل دخل محمد ـ ﷺ ـ المعامل التحليلية واستعمل الأجهزة الدقيقة ؟ هل ذهب إلى أستاذ فى الطب ووظائف الأعضاء ، وتلقى على يديه العلوم الكونية ؟ إن العالم يشهد أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يذهب إلى جامعة من جامعات العالم و لم يتتلمذ على أستاذ من الأساتذة ، وإنما أوحى الله إليه بكتاب حكيم : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[3] . وقال له : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علَّم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[4] . فصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأطهار الأبرار والتابعين هديه بإحسان وسلم تسليما كثيرا .

---

(١) سورة النساء [آية ١١١] .
(٢) سورة النحل [٦٨] .
(٣) سورة فصلت [آية ٤٢] .
(٤) سورة العلق [آية ١ ــ ٥] .

الإيجاد والعدم

ما زلنا نواصل الحديث عن الآيات القرآنية فى « سورة النحل » ودورها فى بناء النفوس بعرض أدلة وحدانية الله تعالى ونعمه على خلقه التى لا تعد ولا تحصى بجولة فى عالم الحيوان وعالم الفلك وعالم النبات و ... وقد أفضنا فى الحديث عن هذه الآيات ، لما اشتملت عليه من أدلة قطعية تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، وتقطع الطريق على : ﴿ **كل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين** ﴾[1] .

فليسأل الإنسان نفسه : أهناك نظام يقوم بلا منظم ، أو تدبير ينشأ عن غير عناية ؟ وهل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد نظاما أو تشيد كونا متكاملا منسقا كل ما فيه ينطق بالحكمة وينفى العبث ؟! سبحانك ربى ! أنت خالق كل شىء ، وأنت على كل شىء قدير ، يا من لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار . وهو الواحد القهار !!

وتنتقل بنا الآيات الكريمات بعد هذا إلى النهاية المحتومة ، والمصير المكتوب على كل إنسان فيقول تعالى : ﴿ **والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم بعد علم شيئا ، إن الله عليم قدير** ﴾[2] .

فهذا النص الكريم ينبه ويرشد ــ بعد آيات النعم ــ إلى أنه لابد من المصير المحتوم للقاء الله رب العالمين .. لذلك فإننا نرى الكتاب العزيز فى مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى : اسمع هذا المشهد القرآنى الذى يقول الله عز وجل فيه : ﴿ **أأنتم أشد خلقا . أم السماء بناها رفع سمكها فسوَّاها . وأغطش ليلها ، وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾[3] .

---

(١) سورة الشعراء [آية ٢٢٢] .

(٢) سورة النحل [آية ٧٠] .

(٣) سورة النازعات [٢٧] .

وبعد هذا ، نبه إلى المصير المحتوم ، الذى لابد من أن نلاقيه جميعا ، فقال عز شأنه : ﴿ **فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى** ﴾[1] .. ثم انتقل معى إلى مشهد قرآنى آخر ، يزيد المعنى توكيدا ، حيث يقول الله جلَّ شأنه : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبًّا متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾[2] .. ثم ينبه بعد ذلك إلى ما سنلاقيه جميعا ، فيقول جلَّ شأنه : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾[3] .

وهكذا أيها القارىء الكريم ، يتجلى أمامك أن الدنيا مهما أقبلت ، فهى مولية ، وأن الحياة مهما طالت ، فإنها منتهية .. فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ﴿ **والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم بعد علم شيئا . إن الله عليم قدير** ﴾[4] . فالله تعالى يخبر فى هذه الآية الكريمة عن تصرفه فى عباده ، وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم ، وهو الضعف فى الخلقة ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير** ﴾[5] .

وقد رُوى عن الإمام على كرم الله وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى ، والخرف ، وسوء الحفظ ، وقلة العلم ، ولهذا قال : « لكيلا يعلم بعد علم شيئا » أى بعدما كان عالما ، أصبح لا يدرى شيئا . روى البخارى فى تفسيرة هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ كان يدعو فيقول : « **أعوذ بك من البخل والكسل ، والهرم ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات** » .

---

(١) سورة النازعات [آية ٣٥] .
(٢) سورة عبس [آية ٢٣] .
(٣) سورة عبس [آية ٣٢ ــ ٣٧] .
(٤) سورة النحل [٧٠] .
(٥) سورة الروم [آية ٥٤] .

عود إلى أدلة التوحيد

بعدما قامت الأدلة الكونية تؤكد وحدانية الخالق ، جاءت الآية السابقة ﴿ **والله خلقكم ، ثم يتوفاكم** ﴾[1] لتبين أن المصير فى النهاية إلى الله الخالق العظيم ؛ ثم عاد النظم الكريم يحدثنا عن القضية الأصلية الأساسية التى تدور حولها الأدلة ، وهى قضية التوحيد ، فجاء القرآن بدليل يخاطب العقل خطابا منطقيا سديدا . يخاطب الذين زعموا أن لله شركاء : تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . فقال جل شأنه : ﴿ **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فُضّلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون** ﴾[2] ؟!.. يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذه الآية عن جهل الضالين المضلين ، المشركين المارقين ، ويبين لهم بشاعة كفرهم فيما زعموه له من الشركاء وهم يعترفون أنهم عبيد له ، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك لك تملكه وما مَلك ، فقال تعالى منكرا عليهم : أنتم لا ترضون أن تتساووا مع عبيدكم فيما رزقناكم « الرزق » هنا : كلمة شاملة عامة ، تشمل كل ما يجود الله به على الإنسان ، وما يهبه إياه من مطعم ومشرب وزوجة ومال ومسكن ـ فكيف يرضى ـ هو تعالى ـ بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم ، كما قال فى آية أخرى فى سورة « الروم » ما يطابق هذا المعنى فى إيضاح قضية الوحدانية توضيحا لا لبس فيه ولا غموض ، حيث يقول جلّ شأنه : ﴿ **ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء . تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون** ﴾[3] .

إذا كنت أيها العبد المخلوق لا ترضى لعبد تملكه يمينك أن يتساوى معك فى رزقك ، فكيف ترضى ذلك للخالق البارىء المصور ؟ وكيف تدعى ـ زورا وبهتانا ـ أن معه من عباده من يساويه فى الألوهية والعظمة ؟ سبحانك ربى ! يا من قلت فى الحديث الجليل : « **الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى** » .

---

(١) سورة النحل [آية ٦٩] .

(٢) سورة النحل [آية ٧١] .

(٣) سورة النحل [آية ٧٠] .

يقول ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **فما الذين فضلوا . برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء** ﴾ .. لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ، فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى ؟ فكيف ترضون لى مالا ترضونه لأنفسكم ؟.. وقوله تعالى : ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون ؟** ﴾(1) أى أنهم جحدوا نعمة الله فأشركوا معه غيره ، وكان الأجدر بهم أن يشركوا هذه النعمة بعقيدة التوحيد .

ويواصل النظم الكريمة سيره المباركة ، فيذكر لنا نعمة هى من جليل النعم التى امتن بها على عباده ، فيقول جلَّ شأنه : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾(2) ؟ أى منطق ، وأى عقل سليم يمعن النظر فى هذه الآية ، ثم يلقى باللوم الشديد على كل من يؤمن من الباطل ويكفر بنعمة الله ؟

فالله جل شأنه يخبر فى هذه الآية الكريمة أن من نعمه على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجا ، من جنسهم وأشكالهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ، ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته تعالى أنه خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجا للذكور . ثم ذكر جل جلاله أنه جعل من الأزواج : البنين والحفدة ، وهم الولد وولد الولد . وفى قوله تعالى : ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾(3) إيجاز بليغ ، وكلمة جامعة فالطيبات : كل ما تطيب به النفس من النعم . فهذه الكلمة الكريمة شاملة للمواهب الإلهية التى ينعم بها الإنسان ، وواجه شكر المنعم عليها :

إذا كنت فى نعمة فارعها   فإن المعاصى تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإلـه   فإن الإلـه سريع النقم

وبعد هذه النعم كلها يأتى الاستفهام الإنكارى : ﴿ **أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾(4) ؟ بل ويأتى عقيب ذلك قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون** ﴾(5) .

---

(1) سورة النحل [آية 71] .
(2) سورة النحل [آية 72] .
(3) سورة النحل [آية 72] .
(4) سورة النحل [آية 72] .
(5) سورة النحل [آية 73] .

وقد جاء فى الحديث الصحيح : « **إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل** » ؟..

يـا مـن بدنيـاه اشتغـل وغـره طـول الأمـل
الموت يـأتى بغتـة والـقبر صنـدوق العمـل

وأما قوله تعالى : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ فقد جاء نتيجة لمقدمات صحيحة : إذ قد ثبت أن الله واحد أحد ، فلا يعقل أن يضرب له الأمثال ، ويجعل له الأشباه والأنداد ، لأن ما سوى الله تعالى إنما هو مخلوق له ، فكيف يكون المخلوق شبيها بالخالق ؟!! والضلال كله أن يحب الناس خمسا وينسون خمسا : يحبون المخلوق وينسون الخالق ، ويحبون المال وينسون الحساب ، ويحبون القصور وينسون القبور ، ويحبون الدنيا وينسون الآخرة ، ويحبون الذنوب وينسون التوبة .

فاللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا . وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين .

من أدلة التوحيد

لما كانت قضية الألوهية من أعظم القضايا ، بل هى أعظمها جميعا ، فإن القرآن أورد حشدا كبيرا من الأدلة ، وأراد أن يزيدها إيضاحا وتقريرا ، فضرب مثلين .. إذ بالمثل يتضح المقال ، قال جل شأنه : ﴿ **ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ، ومما رزقناه منا رزقا حسنا ، فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلا رجلين : أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير : هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ ولله غيب السمٰوات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شىء قدير . والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ألم يَرَوْا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[1] .

معنى المثل الأولى : ضرب الله مثلا لكل ما يعبد من دون الله فى أى زمان أو مكان « والله تعالى عو الواحد الخالق البارىء ، فاطر السمٰوات والأرض ، واهب الوجود ، والمنعم بكل شىء موجود » ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لمالكه ، وهو لا يقدر على شىء أبدا ، فلا ينفع نفسه ، ولا غيره ؛ ومما رزقناه منا رزقا حسنا ، وأعطيناه مالا وفيرا ، فهو ينفق من المال سرا وجهرا فى جهات الخير والبر : هل يستوى هذا العبد الذى لا خير فيه ، مع هذا الحر الغنى المنفق فى وجوه البر والخير ؟ وهل يستوى الضار والنافع ؟!!

لا يستوى هذا وذاك أبدا ، ومن ذا الذى يسوى بين غير الله من المخلوقات وبين الله القدير جل جلاله ، وتباركت أسماؤه ، صاحب النعم ، وله ملك السمٰوات والأرض ، يداه مبسوطتان ، ينفق كيف يشاء ؟!! الحمد لله والثناء الجميل ، والشكر

---

(١) سورة النحل [آية ٧٤ – ٧٩] .

الجزيل لله الواحد القهار ، المنعم بجلائل النعم ، والمتفضل بدقائقها ، لا مانع لما أعطى ولا مُعطى لما منع .. هو المستحق وحده الحمد والثناء ، لا إله إلا هو : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾[1] أى لا يعلمون الحق فيتبعوه ، ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة فيخصوه وحده بالتقديس والتنزيه .

ومعنى المثل الثانى : ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا لنفسه ، ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية ، وللمعبودات التى لم تسبق لها الحياة ، وهى لا تضر ولا تنفع ، فقال : ﴿ **وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم** ﴾[2] أى عيٌّ مفحم مقطوع اللسان أخرس ، لا يقدر على شىء أبدا ، لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ﴿ **كلٌّ على مولاه** ﴾[3] أى لا يقوم بحاجته ، ولا يؤدى عمله لنفسه ، فهو ثِقل على قرابته . هذا الأبكم الذى لا يقدر على تحصيل شىء أبدا ، وهو كل على مولاه أينما يوجه إلى أى جهة أخرى لا يأت بخير قط ، لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ..

هل يستوى هذا الذى وصفناه بهذه الأوصاف ، والذى يأمر بالعدل ، ويسير بالعدل ، ويحكم بالعدل ، ويأمر بالعدل ، وينطق ويفهم ، ويتصرف على أتم وجه وأكمله ؟! وهو على صراط مستقيم ، ودين قويم ، وسيرة صالحة ، لا إفراط فيها ولا تفريط ؟!

والنتيجة : نستطيع أن نستنتج من هذين المثالين السابقين ، أن غير الله لا يمكن بحال من الأحوال أن يتساوى مع الله .. فالله واجب الوجود لذاته ، وغير الله حادث بعد العدم ، والله واجب له كل كمال يليق بذاته ، وغير الله لا يخلو من نقص ، والله تعالى واجب له القدم فاستحال عليه الحدوث ، وواجب له البقاء ، فاستحال عليه الفناء ، وواجب له القيام بالنفس ، فاستحال فى حقه الاحتياج إلى غيره ، ووجبت له المخالفة للحوادث فاستحال فى حقه المماثلة لغيره ، وواجب له الوحدانية ، فاستحال فى حقه الشرك والتعدد . ووجبت له القدرة ، فاستحال عليه العجز ، ووجبت له الإرادة ، فاستحال فى حقه القهر والجبر ، ووجب له العلم ، فاستحال فى حقه الجهل ، ووجبت له الحياة فاستحال فى حقه الموت ، ووجب له السمع والبصر ، فاستحال فى حقه

(١) سورة النحل [آية ٧٥] .
(٢) سورة النحل [آية ٧٥] .
(٣) سورة النحل [آية ٧٥] .

الصمم والعمى ، ووجب له الكلام النفسى ، فاستحال فى حقه البكم . وغاية الأمر أن كملات الله لا تتناهى .. لا يحصرها عد ، ولا يحيط بها حد : ﴿ **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ .

مع القدرة الباهرة والعلم المحيط

وبعد الحديث عن الوحدانية ، ينتقل بنا النظم الكريم إلى الحديث عن العلم المحيط والقدرة الباهرة ، فيقول جل شأنه : ﴿ **ولله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شىء قدير** ﴾[1] .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا النص الكريم عن كمال علمه وعظيم قدرته على الأشياء فهو تعالى يعلم غيب السموات والأرض ، وأنه مختص بعلم الغيب لا شريك له ، فلا اطلاع لأحد على ذلك ، ألا أن يطلع الله تعالى من يشاء على ما يشاء ، قال جل شأنه : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحدا . إلا من ارتضى من رسول** ﴾[2] . أما عن القدرة : فأمره تعالى بالكاف والنون : ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون** ﴾[3] . ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾[4] . أى فيكون ما يريده سبحانه كطرفة العين .

وهكذا قال هاهنا : ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شىء قدير** ﴾[5] . وكما قال : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾[6] .

هذا خلق الله !! عالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم ، وقدرة الله الذى أنزل القرآن ، وعلى صدق سيدنا محمد ـ ﷺ ـ الذى بُعث بالقرآن .

فإن الأطوار التى يمر بها الإنسان فى الرحم عديدة ومختلفة . يقول سبحانه : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا**

(١) سورة النحل [آية ٧٧] .
(٢) سورة الجن [آية ٢٦] .
(٣) سورة النحل [آية ٤٠] .
(٤) سورة القمر [آية ٥٠] .
(٥) سورة النحل [آية ٧٧] .
(٦) سورة لقمان [آية ٢٨] .

العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1] .

فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : **﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾**[2] . فما هو الرحم ؟ يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ، ثم يذكرون أبعاده فيقولون إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات ، وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات ، وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات .. والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم : قرارا مكينا ، حيث يقول جل شأنه : **﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا ، فنعم القادرون ﴾**[3] . هل خُلقنا وصُورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا ! بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : **﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾**[4] . فلينظر الإنسان مما خلق ؟ من كائن منوى ، مفرطح الرأس ، طويل الذنب ، لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم : نصف مليمتر فى الثانية الواحدة ، اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء أن يخلق الإنسان !!

فكيف كان حالنا فى عالم الأرحام ؟ كنا نتغذى بغذاء الأم ، ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسيجين اللازم ، وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفا أو شتاء ، وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر — وهو فى الأرحام — خمسة أرطال وعندما بلغ تسعة أشهر : كان وزنه سبعة أرطال أو ثمانية .. فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق ضيق دقيق ؟.. ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تتقلص عضلاته ، حيث أصبح الإنسان ضيفا ثقيلا عليه — فتقلصت العضلات فعبر الإنسان هذا المضيق الدقيق !! والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول : **﴿ من أى شىء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره ﴾**[5] . فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟ يقول عز وجل : **﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾**[6] .

---

(١) سورة المؤمنون [آية ١٤] .
(٢) سورة آل عمران [آية ٦] .
(٣) سورة المرسلات [آية ٢٠] .
(٤) سورة الزمر [آية ٦] .
(٥) سورة عبس [آية ١٨ ، ١٩] .
(٦) سورة النحل [آية ٧٨] .

وبنظرة فاحصة فى قوله تعالى : ﴿ **لا تعلمون شيئا** ﴾[1] تفيد نفى العلم بالكلية .. إذ يقول علماء اللغة إن النكرة فى سياق النفى تفيد العموم . ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ، ولنقابل هذا بالشكر .. والشكر لله : أن تسخر نعم الله فى طاعته ، وأن لا تستعملها فى معصيته .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة النحل [آية ٧٨] .

عالم الطير

وينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى آية المشاهدة لتدل على عظمة الإلٰه الخالق المهيمن : تلك الآية هى عالم الطير ، حيث يقول جلَّ شأنه : ﴿ **ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ، ما يمسكهن إلا الله ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[1] .

يقول المفسرون فى هذه الآية الكريمة : ينبه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض : كيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى ، وجعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر لها الهواء يحملها ويسيّرها ؛ كما قال تعالى فى سورة الملك : ﴿ **أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شىء بصير** ﴾[2] .

واعلم يا أخى أن عالم الطير فيه من حقائق الأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق المتعال . فقد نطق العلم مخبرا عن هذه الأسرار : كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته فى هذه الدنيا التى يعيش فيها ويطير فى أجوائها ؟

يقول علماء الكون : إن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافا كبيرا عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ، ويوضح جميل الصنع .. إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان ، عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلا من الفم والشفتين والأسنان عند سائر الحيوانات ، إن يبتلع الطير غذاءه بلا مضغ ، ويختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها : فالطيور الجارحة ــ كالبوم والحدأة ــ ذات منقار قوى مقوس حاد ، على شكل خطاف ، وذلك لتمزيق اللحوم .. بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة ، كالمغرفة ، تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء . وعلى جانب المنقار

---

(١) سورة النحل [آية ٧٨] .　　(٢) سورة الملك [آية ١٩] .

زوائد صغيرة كالأسنان ، لتساعد على قطع الحشائش ، أما الدجاج والحمام وباق الطيور التى تلتقط الحب من الأرض : فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .. بينما منقار البجعة ـ مثلا ـ طويل طولا ملحوظا ، ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب، ليكون كشبكة الصياد ، إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى ... ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب ، أُعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان ، والتى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم : إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب ، فلما لم يُعط أسنانا فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام ، ويلتقط الطير موادا صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى : من الذى هيأ لعالم الطير هذا النظام ، وأرشده إلى أن يسلك سُبل الحياة ، كما قال سيد المرسلين ـ ﷺ ـ: « **لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خماصا ، وتروح بطانا** » ؟. هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والإتقان الحكيم ؟!!

﴿ قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾[١].

(١) سورة طه [آية ٤٩ ـ ٥٤] .

من النعم الإلهية

وتسير بنا الآيات فى زحفها المبارك ، حيث تذكر لنا نعما من نوع آخر ، غير الذى قدمته على مائدة الكرم الإلهى ، فيقول سبحانه : ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ، ويوم اقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون فإن تولّوا فإنما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾(١) .

يخبرنا مولانا تبارك وتعالى فى هذا المشهد الرائع عن تمام نعمه على عباده بما جعل لهم من البيوت التى هى سكن لهم ، يأوون إليها ويستترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضا من جلود الأنعام بيوتا يستخفون حملها فى أسفارهم ليضربوها لهم فى إقامتهم فى السفر والحضر .. ولهذا قال : ﴿ **تستخفونها يوم ظعنكم** ﴾(٢) أى فى أسفاركم .﴿ **ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها** ﴾(٣) : أى من الغنم ، (وأوبارها) أى الإبل ، (وأشعارها) : أى المعز ، والضمير عائد على « الأنعام » . « أثاثا » : أى تتخذون منه أثاثا ، يعنى كل ما ينتفع به من أثاث البيوت ، وهو أعم من المال والثياب ؛ إذ أنه قد يكوّن مصدرا للربح فى التجارة ، ويُصنع منه البسط والسجاد . وقوله تعالى : ﴿ **ومتاعا إلى حين** ﴾(٤) : أى إلى أجل مسمى ووقت معلوم .

وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم مما خلق ظلالا** ﴾(٥) أى مما خلق من الأنعام والبيوت والجبال والأشجار ظلالا تستظلون بها من وهج الشمس وزمهرير البرد ، ﴿ **ويجعل لكم من الجبال أكنانا** ﴾ ومغارات تأوون إليها من العدوّ ، أو خوف الشمس ، أو من زحمة الناس ، ﴿ **وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر** ﴾ من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾(٦) كالدروع من الحديد المصفح ، وغير ذلك مما يستعمل فى الحرب .

---

(١) سورة النحل [آية ٨٠ ــ ٨٣] .
(٢) سورة النحل [آية ٧٩] .
(٣) سورة النحل [آية ٧٩] .
(٤) سورة النحل [آية ٧٩] .
(٥) سورة النحل [آية ٨٠] .
(٦) سورة النحل [آية ٨١] .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾[1] . أى هكذا يجعل لكم ماتستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته .

لمحة قرآنية

ومما هو جدير بالذكر أن هذه السورة التى نحن بصدد الحديث عنها .. وهى سورة النحل ـ تسمى أيضا سورة « النعم » وذلك لما اشتملت عليه من الآلاء العظيمة ، والنعم الكريمة ، وإنما أردنا بتلك اللمحة أن نوضح نقطتين هامتين يلاحظهما القارىء لكتاب الله العزيز بعين البصيرة :

ـ فهذه السورة الكريمة اشتملت على مشاهد عديدة من النعم العظمى ، وقد لاحظنا أنها كلما ذكرت جملة من النعم : عقبت عليها بتعقيب يظهر طبائع الإنسان ، الذى لا يقابل هذه النعم بما يليق بها من شكر الإله الواحد وذلك كما جاء فى سورة « الرحمن » عقبت كل نعمة بـ ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[2] . وفى سورة « النحل » جاء عقيب المشهد الأول من النعم قوله تعالى : ﴿ وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها ﴾[3] ثم نطق القرآن الكريم بقوة وصراحة فقال : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾[4] ثم بعد ذلك عرضت السورة مشهدا آخر من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾[5] إلى قوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ﴾[6] . ثم عقب على هذا المشهد من النعم بما يظهر طبائع الناس من إعراضهم عن الشكر ، فقال سبحانه : ﴿ أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون ﴾[7]؟ ثم استعرضت السورة مشهدا ثالثا من النعم وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾[8] إلى قوله جلَّ شأنه : ﴿ كذلك يتم

(١) سورة النحل [آية ٨١] .
(٢) سورة الرحمن [آية ١٣] .
(٣) سورة النحل [آية ١٧] .
(٤) سورة النحل [آية ٢٢] .
(٥) سورة النحل [آية ٦٥] .
(٦) سورة النحل [آية ٧١] .
(٧) سورة النحل [آية ٧٢] .
(٨) سورة النحل [آية ٧٧] .

نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾[1] ثم عقبت على هذا المشهد الكريم بما يظهر طبائع الناس من انصرافهم عن شكر المنعم ، فقال سبحانه : ﴿ **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾[2] .

وقد ذكروا أن أعرابيا أتى النبى ـ ﷺ ـ فسأله : فقرأ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكنا** ﴾[3] فقال الأعرابى : نعم ، قال ﴿ **وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا** ﴾ قال الأعرابى : نعم ، ثم قرأ عليه .. وكل ذلك يقول الأعرابى : نعم ، حتى بلغ ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾[4] . فولى الأعرابى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون** ﴾[5] .

وهذا يظهر موقف الإنسان من نعم ربه ، وكان ينبغى عليه أن يكون مقرا بالفضل ، عارفا بما يكافىء جزيل النعم .. وقد اختتمت هذه السورة بموقفين كريمين لنبيين عظيمين وقفا موقف الشكر والصبر : نبى الله إبراهيم ونبى الله محمد ، عليهما الصلاة والسلام : يقول القرآن فى حق الخليل عليه السلام : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمة ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾[6] .

ويقول فى حق خاتم الأنبياء سيدنا محمد ـ ﷺ ـ: ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون** ﴾[7] .. فما أجمل الشكر عند الرخاء والصبر عند الضراء . وكما قال الصادق والمعصوم : « **عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله هو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له** » . فاللهم صل وسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للبشرية جمعاء وعلى آله والتابعين إلى يوم الدين .

---

(١) سورة النحل [آية ٨١] .
(٢) سورة النحل [آية ٨٣] .
(٣) سورة النحل [آية ٧٩] .
(٤) سورة النحل [آية ٨١] .
(٥) سورة النحل [آية ٨٢] .
(٦) سورة النحل [آية ١٢٠] .
(٧) سورة النحل [آية ١٢٦] .

ليس لها من دون الله كاشفة

إن القرآن الكريم - فى مواضع كثيرة - بعد ما يذكر نعم الله على عباده فى الدنيا ؛ ينبه عقولهم ، ويشد أفئدتهم إلى ما بعد الدنيا من البعث والجزاء ... فالله تعالى - بعدما ذكر النعم الجزيلة والآلاء الجليلة - أخذ بأيدينا ليوقفنا فى عرصات القيامة وساحات الحساب ، فقال سبحانه : ﴿ **ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ، ثم لا يُؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون . وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم يُنظَرون . وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون . وألقوا إلى الله يومئذ السَّلَم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون** ﴾[1] .

وهكذا .. وجدنا أنفسنا قد انتقلنا من بطون الأمهات ، وقمنا بتمثيل أدوارنا على مسرح الحياة ، وتمتعنا بنعم الله .. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى هذا المشهد القرآنى الذى يأخذ بالألباب ، ويجعل القارىء يستولى عليه العجب ، حيث يجد هذه الصور الرهيبة فى عرصات القيامة : الظالمون يرون العذاب فلا يخفف عنهم ؛ والمشركون يرون الشركاء فيلزمونهم الحجة ، والذين كفرو وصدُّوا عن سبيل الله يضاعف لهم العذاب وكل نبى يشهد على أمته بأنه قد بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ، والكافرون قد انقطعت أعذارهم وبطلت حججهم ، فلا يؤذن لهم ، كما قال تعالى : ﴿ **هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون** ﴾[2] ، ومعنى قوله تعالى : أى لا يطلب منهم العُتْبَى .. أى الرضا . إذ أنه لا فائدة من العتاب ، مع العزم على السخط وعدم الرضا ، وهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، فقد فات زمنه فى الدنيا ، وذهبت السكرة ، وحلت الفكرة ، وانفض السوق ، فربح فيه الرابحون ، وخسر فيه الخاسرون .

---

(١) سورة النحل [آية ٨٤] .
(٢) سورة المرسلات [آية ٣٥] .

فإذا كانت الدنيا دار عمل ولا حساب فالآخرة دار حساب ولا عمل ، ويومئذ لا ينفع التمنى ، فلا يقبل من أحدهم أن يقول : ﴿ **يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتى : ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا** ﴾ ، ﴿ **يا ليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية** ﴾ ﴿ **يا ليتنى كنت ترابا** ﴾ ، ﴿ **يا ليتنى قدمت لحياتى** ﴾ ، ﴿ **يا ليتنا نُرَدُّ ، ولا نكذب بآيات ربنا** ﴾ . عندئذ يقول لهم : ﴿ **أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾[1] .

فبادر يا أخى بالرجوع إلى الملك الديَّان قبل فوات الأوان ، حيث لا ينفع الندم :

عجوز تمنت أن تكون صبية … وقد نحل الجنبان واحْدَوْدَبَ الظهر
فسارت إلى العطار تبغى شبابها … وهل يُصلح العطارُ ما أفسد الدهر ؟!

قوله تعالى : ﴿ **وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ، فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون** ﴾[2] أى لا يفتر عنهم ساعة ، ولا هم يؤخرون عن تنفيذ حكم الله فيهم : ﴿ **ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا** ﴾[3] . ﴿ **وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى** ﴾[4] .

فاتق دعوة المظلوم ، ولو من كافر ، فالظلم ظلمات يوم القيامة .. ومن كفر فعليه كفره :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا … فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبـه … يدعو عليك وعين الله لم تنم

---

(١) سورة فاطر [آية ٣٧] .
(٢) سورة النحل [آية ٥٣] .
(٣) سورة الكهف [آية ٥٣] .
(٤) سورة الشورى [آية ٤٥] .

المحكمة الإلهية العليا

قوله جل شأنه : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون . وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾[1] .

هذه وقفة فى محكمة الجنايات الإلهية العليا للحكم فى أكبر جناية ترتكب ألا وهى : الشرك ، الذى نص عليه قانون الله تعالى قائلا : ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾[2] .

وقد دارت المناقشة بين المشركين والآلهة فى هذه الجلسة العاصفة على النحو التالى :

قال المشركون : ربنا هؤلاء الذين كنا ندعوا من دونك .

فردت عليهم الآلهة التى كانت تعبد فى الدنيا ! إنكم لكاذبون !!

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾[3] .. ومصداق لقوله جلَّ شأنه : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا . كلا سيكفرون بعبادتهم ، ويكونون عليهم ضداً ﴾[4] ، وقد قال القرآن الكريم على لسان الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ﴾[5] .

وقوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾[6] .. فماذا يقول المشركون بعدما لزمتهم الحجة ، وحق عليهم القول ؟ إنهم كما قال الله : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السَّلَمَ ﴾[7] : أى ذلوا واستسلموا يومئذ ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، كما قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ أى

---

(١) سورة النحل [آية ٨٦] .
(٢) سورة النساء [آية ١١٦] .
(٣) سورة الأحقاف [آية ٦] .
(٤) سورة مريم [آية ٨١] .
(٥) سورة العنكبوت [آية ٢٥] .
(٦) سورة القصص [آية ٦٤] .
(٧) سورة النحل [آية ٨٧] .
(٨) سورة مريم [آية ٣٨] .

أى ما أسمعهم وما أبصرهم !! وهو أسلوب فى التعجب .

وكما قال تعالى : ﴿ **وعنت الوجوه للحى القيوم** ﴾[1] أى خضعت ، وذلّت واستكانت ، وأنابت ، واستسلمت : ﴿ **وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **وضلّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾[2] أى ذهب واضمحلّ ما كانوا يعبدونه ، افتراء على الله فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير وبعد أن تمت المحاكمة : أصدرت محكمة العدل الإلهية الكبرى حكمها المبرم الذى لا يقبل استئنافا ولا نقضا ، فقال سبحانه : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون** ﴾[3] أى عذابا على كفرهم ، وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى : ﴿ **وهم ينهون عنه وينأون عنه** ﴾[4] أى ينهون الناس عن اتباعه ، ويبتعدون هم منه أيضا : ﴿ **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾[5] وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى درجاتهم ، فإن الجنة درجات ، والنار دركات ﴿ **قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون** ﴾[6] .

صاحب اللواء المعقود ـ ﷺ ـ

اختتم الله هذا المشهد الرائع، وهذا الموقف الرهيب بقوله: ﴿**ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيدا على هؤلاء، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾[7].

هذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ـ ﷺ ـ صدر سورة «النساء» فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا**﴾[8] فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «**حسبك. فقال ابن مسعود: فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان الدمع**».

هذا خطاب إلى صاحب اللواء المعقود، والمقام المحمود، والحوض المورود..

---

(١) سورة طه [آية ١١١] .
(٢) سورة الأنعام [آية ٢٤] .
(٣) سورة النحل [آية ٨٨] .
(٤) سروة الأنعام [آية ٢٦] .
(٥) سورة الأنعام [آية ٢٦] .
(٦) سورة الأنعام [آية ٢٦] .
(٧) سورة النحل [آية ٨٩]
(٨) سورة النحل [آية ٨٩] .

إلى رسول الله - ﷺ -، الذى سيشهد على هؤلاء جميعا ؛ فهو خاتم الأنبياء والرسل ، الصادق الأمين ، وكتابه هو المهيمن على جميع الكتب الذى جعله الله هدى ورحمة للعالمين : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** ﴾[١] .

﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾[٢] .

فكيف كان القرآن تبياناً لكل شىء ؟

يجيب على هذا السؤال صاحب « الكشاف » رحمه الله فيقول : « فإن قلت : كيف كان القرآن تبيانا لكل شىء ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شىء من أمور الدين حيث كان نصا على بعضها ، وإحالة على السنة ، حيث أمر الله فيه باتباع رسوله - ﷺ - وطاعته : ﴿ **من يُطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ ﴿ **وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى** ﴾[٣] . وحثا على الإجماع فى قوله : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم ، وساءت مصيرا** ﴾[٤] . وقد رضى رسول الله - ﷺ - لأمته اتباع صحابته واقتفاء آثارهم فى قوله - ﷺ - « **أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم ، اهتديتم** » . وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب ، فمن ثم : كان القرآن تبيانا لكل شىء » اهـ .

صدقت يا ذا الجلال والإكرام ، يا من قلت : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾[٥] ، وقلت : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[٦] . وصدق رسولك الكريم إذ يقول : « **لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى** » وإذ يقول : « **أوتيت القرآن ومثله معه** » . فصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة الاسراء [آية ٩] .
(٢) سورة البقرة [آية ١٤٣] .
(٣) سورة النجم [آية ٤] .
(٤) سورة النساء [آية ١١٥] .
(٥) سورة الأنعام [آية ٣٨] .
(٦) سورة الحشر [آية ٧] .

قواعد البناء القوية

بعدما بينت الآية السابقة شهادة الرسول ـ ﷺ ـ يوم القيامة عقبت بأن الله تعالى نزل عليه الكتاب الكريم ليكون تبيانا وتوضيحا وسراجا منيرا ، يضيء مسالك الحياة ، وليكون هاديا ، ورحمة ، وبشرى للمسلمين ، حيث انتقل النظم الكريم بعد ذلك يبين لنا القواعد الأكيدة الوطيدة الأركان التى لا تهتز ولا تختل ما بقيت الدنيا ، ويوم يقوم الحساب . فقال سبحانه : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإتياء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم ، لعلكم تذكرون** ﴾[1] .

هذا النص الكريم الخالد ورد فيه الأمر بثلاثة أشياء والنهى عن ثلاثة أشياء : يقول ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: إن أجمع آية فى القرآن فى سورة « النحل » هى قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[2] .. الآية .. وقد ذكروا أن الحكيم العربى « أكثم بن صيفى » أرسل وفدا من أتباعه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يسألونه فالتقوا به فقالوا : نحن رسل أكثم بن صيفى ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال النبى ـ ﷺ ـ: « **أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا : فأنا عبد الله ورسوله** » ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[3] الآية : قالوا : ردِّد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتوا أكثم ، فقالوا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه : فوجدناه زاكى النسب ، شريفا ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ؛ فلما سمعهن أكثم قال : « إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رؤوسا ولا تكونوا فيه أذنابا » .

---

(١) سورة النحل [آية ٩٠] .

(٢) سورة النحل [آية ٩٠] .

(٣) سورة النحل [آية ٩٠] .

العدل ونتائجه والظلم وعواقبه

لقد أمر مولانا تبارك وتعالى بالعدل أولا ، والإحسان ثانيا ، ثم بإيتاء ذى القربى ثالثا . والعدل هو القاعدة الأصلية فى بناء الأمم : إذ هو وضع الشيء فى موضعه ، وإقامة الميزان بالقسط وإعطاء كل ذى حق حقه .

ولما كان العدل هو الذى يقيم الأمم ويقومها : فإن الظلم يدمرها ويهلكها ، وقد تضافرت آيات الكتاب العزيز على ذلك .. قال جل جلاله : ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا** ﴾[1] ، وقال ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾[2] ، وقال : ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا** ﴾[3] ، وقال : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾[4] ، وقال : ﴿ **وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير** ﴾[5] .

وقال : ﴿ **فبظلم من الذين هادوا ، حرما عليهم طيبات أحلت لهم** ﴾[6] .

أما الإحسان : فهو زيادة عن العدل ، أى إذا كان العدل أساساً : فالإحسان تفضل وكرم ، ولذا فإن الله تعالى يقول فى شأن العدل : ﴿ **والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون** ﴾[7] ويقول فى شأن الإحسان : ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ .. ويقول فى شأن العدل : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ وفى شأن الإحسان : ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ ، ويقول فى شأن العدل : ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** ﴾[8] وفى شأن الإحسان : ﴿ **ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ .

وقد صدق جل جلال الله إذا يقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[9] .

---

(١) سورة يونس [آية ١٣] .
(٢) سورة هود [آية ١١٧] .
(٣) سورة الكهف [آية ٥٩] .
(٤) سورة الحج [آية ٤٥] .
(٥) سورة الحج [آية ٤٨] .
(٦) سورة النساء [آية ٦٠] .
(٧) سورة الشورى [آية ٣٩] .
(٨) سورة الشورى [آية ٤١] .
(٩) سورة المائدة [آية ٨] .

فبالعدل قامت السمٰوات والأرض ، وبالعدل تقوم الحياة الهادئة المطمئنة . إذ هو ميزان الحياة الصحيحة : به تطمئن النفوس وتنشرح الصدور ، ويأمن الأفراد على حقوقهم ، والحكام على أنفسهم . وإن أى مجتمع يزول من بين أفراده العدل وتقوض أركانه لهو جدير بالمهانة وحقيق بالذلة .. إذ يقول المعصوم ـ ﷺ ـ فيما يرويه معاوية ـ رضى الله عنه ـ: « لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى » .

فالعاقل من حفظ نفسه من الجور ، وعدل مع ربه وخالقه ورازقه ، فعمل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، وراقبه فى السر والعلن ، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وعندما أُتى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بتاج كسرى وسواريه قال : إن الذى أدى هذا لأمين : فقال له على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ: « عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا » .

وهذه صورة مشرقة من حياة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ، فقد رآه رجل من الفرس ينام فى ظل شجرة وهو مستغرق فى نوم عميق ، دون أن يكون حوله من يحرسه ، ذلك لأنه أقام العدل.فوقف الفارسى يعجب : أهذا أمير المؤمنين ؟! ثم قال : « حكمت فعدلت ، فأمنت فنمت يا عمر » . ولذلك كان أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول : « لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لا تصلح لها الطريق يا عمر ؟! » .

وقد روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « **يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام فى الأرض بحقه : أزكى من مطر أربعين صباحا** » .

وروى عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « **أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منى مجلسا إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منى مجلسا : إمام جائر** » .

إذا كانت هذه هى مكانة العدل : فإن الإحسان فيه زيادة عن العدل ،

وفضل ورحمة وكرم ، وقد يأتى الإحسان بمعنى آخر ، كما بين ذلك الصادق الأمين محمد ـ ﷺ ـ فى قوله : « **الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك** » . فهذا معنى يرتفع بالنفس من غياهب الظلمات وفلول الدجى وحضيض الغبراء ، إلى قمة شماء فى باذخ العلياء : إذ اشتمل هذا المعنى على درجتين : درجة المشاهدة : « أن تعبد الله كأنك تراه » ، ودرجة المراقبة : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وبهذا يعمل الضمير الحى عمله .. فقد رأى أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ رجلا يغش اللبن بالماء ، فقال له : يا هذا : ماذا تقول إذا قيل لك يوم القيامة : خلص اللبن من الماء ؟ نعم : إن « الضمير » هو السلطة التى تدفع النفس إلى مراقبة ربها وخلقها والاستشعار بهيمنة سلطانه .. وهل ننسى موقف هذه الفتاة التى كانت أمها تغش اللبن ، ونهاها أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ عن هذا الفعل ، ولكنها عادت وغشت اللبن ، فقالت لها ابنتها : يا أماه ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا ؟ فقالت لها : وهل يرانا أمير المؤمنين ؟ قالت لها : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا ، فإن الله رب العالمين يرانا ؟ وكان عمر فى هذه الأثناء يمر يتفقد الرعية ، فرآها تغش اللبن . فقال لها : يا عجوز ألم أنهَكِ عن غش اللبن ؟ قالت : والله ما غششته يا أمير المؤمنين .. وإذا بصوت « الضمير » ينبعث من داخل هذا الكوخ : صوت ابنتها ـ يقول لها : يا أماه أتغشين المسلمين ، وتحنثين فى اليمين ، وتكذبين على أمير المؤمنين ؟!.

وأخذت هذه الكلمات طريقها إلى قلب عمر ـ رضى الله عنه ـ، ولها رنين قوى أنقى من رنين الذهب ، فهل يقف عمر منها موقفا سلبيا؟ كلا ! لقد زوجها لابنه عاصم ، فأنجبت منه فتاة اسمها « ليلى » . هذه الفتاة تزوجت عبد العزيز بن مروان ، فأنجبت منه خامس الخلفاء « عمر بن عبد العزيز » ، الخليفة الزاهد ، العادل ، الرحيم ،... ذلك الذى يوم مات قال رعاة الغنم فى شواهق الجبال : اليوم مات عمر ، قيل : وما أدراكم بموته ؟ قالوا : لأن الذئب قد عدا على الغنم ، وما عهدناه كذلك فى حياة عمر . ولما تحقق الناس من الخبر ، وجدوه قد مات فعلا .

وقد سئل عمر بن عبد العزيز فى حياته عن هذه الظاهرة العجيبة ، هى أن الذئب أصبح يرعى الغنم كأنه كلبها وحارسها ، فقال لهم : « أخلصت ما بينى وبين ربى ، فأخلص الله ما بين الذئب والغنم » .

هكذا صارت بنت بائعة اللبن : فى بيت الإمارة . وهكذا صارت جدة لأمير المؤمنين ، وهكذا تبنى النفوس ويشيد صروحها .

صدقت يا سيدى يا رسول الله : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

فاللهم آت نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

صلة الرحم

أيها القارىء الكريم : بإقامة العدل تحيا النفوس ، وبالإحسان يرتفع شأنها ، وبإيتاء ذى القربى يعم الإخاء والرحمة .. فليس هناك مكانة تعدل صلة الرحم ، وأول الأرحام فى « كشف » الصلة : الوالدان ، يليهما الأقرب فالأقرب .

ولمكانة الأرحام العظيمة عند الله فقد عُطِفت على لفظ الجلالة فى قوله تعالى : **﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ﴾**[1] .. وقد سأل عبد الله بن مسعود ــ رضى الله تعالى عنه ــ سيدنا رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : « **الصلاة على وقتها** » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « **الجهاد فى سبيل الله** » .

وقد بين الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ ﷺ ــ مكانة الوالدين على أولادهما حيث يقول : « **لا يجزى ولد والداً إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه** » .

ــ هذه توجيهات نبوية وإرشادات إسلامية تحث على صلة الرحم لما فيها من الفضائل والمزايا .

ــ يقول سيدنا رسول الله ــ ﷺ ــ: « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت** » .

ــ وتأمل معى أيها القارىء الكريم مكانة الرحم عند الله تبارك وتعالى فى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله ــ ﷺ ــ: « **إن الله تعالى خلق الخلق ، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ! أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من**

---

(١) سورة النساء [آية ١] .

قطعك ؟ قالت : بلى ! قال : فذلك لك ؛ ثم قال ـ ﷺ ـ اقرأوا إن شئتم : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾[1] . وفى رواية للبخارى : فقال الله تعالى : « **من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته** » . فعليك بصلة أرحامك ، وحاذر من قطيعتها ، فإن الله تعالى جلَّ جلاله يقول فى الحديث القدسى : « **أنا الله ، وأنا الرحمن ، وقد اشتققت للرحم اسما من اسمى : فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته** » .

وإذا كانت الآية الكريمة قد أمرت بصلة ذى القربى وإيتائهم حقهم ، فلأنهم أولى الناس بالمعروف . قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « **الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة** » . وليس معنى هذا أن ذوى القربى هم المخصوصون بالصلة ، بل هم أولى الناس بالصلة ؛ لأن هناك رحما عامة : هم من يقول : لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ، وهؤلاء لهم حقوق على كل مسلم ومسلمة : كأن يعوده إذا مرض ، ويشيعه إذا مات ، ويسلم عليه إذا مر به وينصحه إذا استنصحه ، ويجيبه إذا دعاه ويفرح له إن كان فى خير ، ويحزن من أجله إن كان فى شر .

وهناك صلة إنسانية أوسع دائرة ، تربط الإنسان مع غيره من الناس رباطا يقوم على العدل والإنصاف ، دون ظلم أو اعتداء : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين** ﴾[2] .

المعروف والمنكر

هذا تعليق على قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[3] .. الآية .
لقد اشتملت هذه الآية الكريمة على أوامر ثلاثة ، ونواه ثلاثة :

---

(١) سورة محمد [آية ٢٢ ، ٢٣] .
(٢) سورة الممتحنة [آية ٨] .
(٣) سورة النحل [٩٠] .

أما الأوامر الثلاثة فهى : العدل ـ والإحسان ـ وإيتاء ذى القربى . وأما النواهى الثلاثة فهى : الفحشاء ـ والمنكر ـ والبغى .

فالبغي والعدل : نقيضان لا يجتمعان ، والإحسان والمنكر : ضدان لا يلتقيان . وإيتاء ذى القربى ، والفحشاء : أمران متقابلان لا يلتقيان .

فالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى : فضائل . والفحشاء ؛ والمنكر ؛ والبغى : رذائل وفى لفظ « الفحشاء » ما يشعر بما فحُش وعظُم من الذنوب بحيث تجاوز كل لياقة .

ولذلك نرى القرآن الكريم يعبر عن بعض الذنوب بلفظ « الفحشاء » : فيقول فى نكاح زوجة الأب ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا** ﴾[1] .. ويقول فى شأن الزنا : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾[2] ، ويقول فى شأن الشذوذ الجنسى : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنت تبصرون ؟!** ﴾[3] .

كل هذه الكبائر من الذنوب فحُشت وزاد خطرها .. من أجل ذلك ورد النهى عنها فى كل صورها ، قال تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾[4] .

أما المنكر : فهو كل ما تنكره الأذواق السليمة ، ولا يقره العرف الصحيح .. ذلك لأن المنكر ضد المعروف ، وقد وردا فى آيات كثيرة كما فى قوله تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[5] .

وفى وصية لقمان لابنه : ﴿ **يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك** ﴾ . وفى قوله جل شأنه : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[6] .

وبنظرة فاحصة فى الكلمتين : تستطيع أن تدرك الفرق الشاسع بينهما : « **فالمعروف** » فى ظهوره ووضوحه : كالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها .

---

(١) سورة النساء [آية ٢٢] .
(٢) سورة الإسراء [آية ٣٢] .
(٣) سورة النمل [آية ٥٤] .
(٤) سورة الأنعام [آية ٦] .
(٥) سورة التوبة [آية ٧١] .
(٦) سورة آل عمران [آية ١٠٤] .

و « المنكر » فى قبحه وسوء فعله ، ونفور النفوس السليمة منه : كظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج الإنسان يده لم يكد يراها : فأكل مال اليتيم : منكر ، والسحر : منكر ، وقذف المحصنات الغافلات : منكر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها : منكر والتولى والفرار من الجهاد : منكر ، والغيبة ، والنميمة ، وقطع الطريق و ... كل هذه منكرات نهى الله عنها ، وشدَّد الوعيد لمقترفيها .

أما البغى : فهو تجاوز الحد ، وترك العدل والإنصاف ، مما يترتب عليه الظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل . وكلمة « الظلم » من أبشع الكلمات وأقساها وقعا على النفس حتى كان اصطدام النفوس بها كاصطدام مطارق الحديد بأوانى الفخار .

الظلم ظلمات يوم القيامة

يكفى للدلالة على ذلك أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى فى حق الظالمين : ﴿ **ماللظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع** ﴾[1] وقوله جلَّ شأنه : ﴿ **أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين** ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ **وما للظالمين من ولي ولا نصير** ﴾ .. واستمع معى إلى هذا الحديث القدسى الجامع إذ يقول رب العزة جلَّ جلاله : « **يا عبادى : إنى حرَّمت الظلم على نفسى وجعلته محرَّما بينكم فلا تظالموا . يا عبادى ؛ كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى : كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم .. يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .. يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .. يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد**

(١) سورة غافر [آية ١٨] .   (٢) سورة مريم [آية ٣٨] .

فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته : ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ..

قال سعيد : كان أبو ادريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه . « رواه مسلم » .

ولقد سقنا هذا الحديث بطوله لما اشتمل عليه من عظائم الأمور .. ويكفى أن نقف عند قوله جلَّ شأنه : « **حرمتُ الظلم على نفسى** » ، فسبحان صاحب العدل المطلق والعظمة الإلهية ولقد أخبر الصادق الأمين - ﷺ - عن بشاعة الظلم يوم القيامة فقال : « **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشُّحَّ ، فإن الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم** » رواه مسلم .

فاللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين .

الوفاء بالعهود فى الإسلام والمحافظة على الأيمان

قال الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون إيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾[1] .

هاتان الآيتان الكريمتان ورد ذكرهما بعد الآية الجامعة لأصول الإسلام ومبادئه ، وذلك دليل قوى على مكانة العهود فى الإسلام ، فقد أكد الله تعالى هذا الجانب بقوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾[2] ، وقوله : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا** ﴾[3] ، وهنا يقول : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذ عاهدتم** ﴾[4] .

والعهد : عبارة عن العقد المؤكد باليمين ، والله جل جلاله يريد أن يعطى العهد مكانة تليق بالوفاء به فيقول : ﴿ **وقد جعلتم الله عليكم كفيلا** ﴾[5] . فمن استشعر عظمة الله وهيمنة سلطانه فإنه لن يجترىء على نقض عهوده ، ولذلك جاء ختام الآية : ﴿ **إن الله يعلم ما تفعلون** ﴾[6] . إذاً فما دام الله هو الكفيل ، العالم بالفعل : سره وعلنه ، أوله وآخره ، صغيره وكبيره ، فكفى به كفيلا ، وكفى به عليما ..

ثم تأتى الآية الثانية فتشبه ناقض العهد بعد توكيده : بامرأة خرقاء ، ذات حماقة وسفاهة ، وغزلت غزلا محكما متقنا ، ثم نقضته نقضا ، فذهب غزلها أدراج الرياح ، وضاع جهدها هباء منثوراً .. كذلك نقض العهود بعد توكيدها : يضعف الأمة ، ويودى بمكانة الفرد ، مهما كانت الدوافع إلى النقض ، ولذلك سمّى الله هذا الفعل :

(١) سورة النحل [آية ٩١ ، ٩٢] .
(٢) سورة المائدة [آية ١] .
(٣) سورة الإسراء [آية ٣٤] .
(٤) سورة النحل [آية ٩١] .
(٥) سورة النحل [آية ٩١] .
(٦) سورة النحل [آية ٩١] .

خيانة ، ودخلاً ، وخديعة ، وغشاً ، فقال : ﴿ **تتخذون أيمانكم دخلا بينكم** ﴾[1] وذلك من أجل أن تكون أمة أكثر عددا من الأخرى ، فليس المدار على كثرة العَدد أو العُدة ، إنما المدار على الثبات والحزم والرجولة والشهامة .

قال سبحانه جل من قائل : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾[2] ، وقال تبارك اسمه : ﴿ **ليجزى الله الصادقين بصدقهم** ﴾[3] .

وإذا كان القرآن الكريم قد شبَّه ناقضى العهود بالمرأة الخرقاء السفيهة ، فإن السنة الشريفة أنزلت « الغادر » يوم القيامة .. مكانة سحيقة من الذل والهوان . قال صلوات الله وسلامه عليه : « **إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان ، وإن من أعظم الغدر ـ بعد الإشراك بالله ـ أن يبايع رجلٌ رجلاً على بيعة الله ورسوله ، ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعن أحد منكم يدا ، ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر ، فيكون فصل بينى وبينه** » .

وكفى بنقض العهد بشاعة : أنه يجعل صاحبه من أهل النفاق ، وكفى بالنفاق إثما أنه داء عضال ، ووبال فتاك بكرامة الأمم والأفراد . قال ـ ﷺ ـ: « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان** » .. وقال أيضا فى رواية للإمام مسلم : « **وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم** » .. وفى حديث آخر : « **أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر** » . (متفق عليه) .

واستمع يا أخى إلى هذه الصورة المشرقة المشرفة من الوفاء بالعهد ، والتى تمثلت على يدى الصديق ـ رضى الله عنه ـ خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ.. فعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : « قال لى النبى ـ ﷺ ـ: لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا ، فلم يجىء مال البحرين حتى قبض النبى ـ ﷺ ـ، فلما جاء مال البحرين ، أمر أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فنادى : من كان له عند رسول الله ـ ﷺ ـ عدة أو دين فليأتنا ، فأتيته وقلت له ، إن النبى ـ ﷺ ـ قال لى

---

(1) سورة النحل [آية ٩٢] .

(2) سورة الأحزاب [آية ٢٣] .

(3) سورة الأحزاب [آية ٢٤] .

كذا وكذا ، فحثى لى حثية فعددتها ، فإذا هى خمسمائة ، فقال لى : خذ مثليها » (متفق عليه) .

ـ لما كان الله تعالى قد أمرنا فى هذا المشهد القرآنى بالوفاء بالعهد ، ونهانا عن نقض الأيمان بعد توكيدها ـ والأوامر والنواهى ابتلاء واختبار ـ لذا فقد ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾(1) .

وتعقيبا على الوفاء بالعهود والمحافظة على الأيمان نقول هناك أمور لابد منها :

١ ـ النهى عن الحلف بغير الله :

لا يجوز لمسلم أن يحلف بغير الله تعالى ، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « **إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا ، فليحلف بالله أو ليصمت** » .. كذلك من باب الخطأ الشائع أن يحلف الإنسان بالأمانة ، فقد روى أبو داود ـ رضى الله عنه ـ بإسناد صحيح أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **من حلف بالأمانة فليس منا** » .. ومن الآفات الشائعة أيضا بين الناس أن يبرأ أحدهم من الإسلام إن فعل كذا وكذا . فما موقف هذا من الله ومن الإسلام ؟

لقد روى أبو داود أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **من حلف فقال إنى برىء من الإسلام : فإن كان كاذبا ، فهو كما قال ، وإن كان صادقا ، فلن يرجع إلى الإسلام سالما** » .

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه سمع رجلا يقول : لا والكعبة . فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله ، فإنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **من حَلَف بغير الله فقد كفر . أو أشرك** » رواه الترمذى .

٢ ـ الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذبا :

من الكبائر التى نهى الله ورسوله عنها : الحلف بالله كذبا ، فقد أخبر الصادق الأمين ـ ﷺ ـ فقال : « **اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع** » .

وروى ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **من حلف على**

---

(1) سورة النحل [آية ٩٢] .

مال امرىء مسلم بغير حقه ، لقى الله وهو عليه غضبان » قال ثم قرأ علينا رسول الله ـ ﷺ ـ مصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا : أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم** ﴾[1] (متفق عليه) .

ثم تعالى معى ـ يا أخا الإسلام ـ لتُمْعن النظر فى هذا الحديث النبوى الشريف الذى يبين فيه الرسول المصطفى ـ ﷺ ـ مدى الخطورة المترتبة على الحلف بالله كذبا فى سبيل أن ينال عَرضا دنيويا لا قيمة له .. قال صلوات الله وسلامه عليه : « **من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه ، فقد أوجب الله له النار ، وحرَّم عليه الجنة** » ، فقال له رجل : وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ قال : « **وإن كان قضيبا من أراك** » (رواه مسلم) .

وقد سمى الإسلام اليمين الكاذبة : باليمين الغموس ، لأنها تغمس صاحبها فى النار ، ولذلك نظمها فى سلك الكبائر من الذنوب ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « **الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس** » . (رواه البخارى) .

٣ ـ رحمة الله بعباده :

من باب رحمة الله ـ التى وسعت كل شىء ـ أنه لم يجعل اليمين مانعا من فعل الخير ، فإذا حلفت يمينا ألا تفعل كذا ، ثم ظهر أن الخير فى فعله ، فلا تجعل يمين الله عائقا ومانعا من فعل ما حلفت عليه ، بل افعل الذى هو خير ، وكفِّر عن يمينك ؛ وكفارة اليمين هى كما بينها الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد : فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم** ﴾[2] .

وجاء فى الحديث الشريف أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **إذا حلفتَ على يمين فرأيت غيرها خيرا منها ، فأتِ الذى هو خير ، وكفر عن يمينك** » (متفق عليه) .

---

(١) سورة آل عمران [آية ٧٧] .

(٢) سورة المائدة [آية ٨٩] .

وقال أيضا ـ صلوات الله وسلامه عليه : « **من حلف على يمين ، فرأى غيرها خيرا منها فليكفّر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير** » (رواه مسلم) .

ـ هذه أمورٌ ثلاثة عقبنا بها على آية « الأيمان والعهود » وذلك نظرا لعموم البلوى وانتشار وقوعها . وكان أول هذه الأمور : النهى عن الحلف بغير الله . وكان ثانيها : الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذبا . وكان ثالثها : التكفير عن اليمين إذا كان الخير فى غيرها .

فاللهم اجعلنا من الصادقين فى أيمانهم الموفين بعهودهم المتبعين صراطك المستقيم على سنة نبينا العظيم . وصلِّ اللهم وسلِّم تسليما كثيرا على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .

مشيئة ، وحكمة ، وتوجيه

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون . ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ، إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾(١) .

واعلم يا أخى أن مشيئة الله تعالى مبنية على علم وحكمة ، وأن من مشيئته تعالى أن أعطى عباده الاختيار والكسب والعقل والتمييز ، ووهبهم القوى التى تمكنهم من سلوك الطريقين : طريق الخير وطريق الشر ؛ فليس لإنسان مجترىء على المخالفة لأوامر الله أن يُلقى باللائمة على مشيئة الله .. قال سبحانه فى حق الإنسان : ﴿ **فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل : إما شاكرا وإما كفورا** ﴾(٢) وفسرَّ السبيل بقوله : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾(٣) بعدما قال : ﴿ **ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين** ﴾(٤) وفسر (النجدين) بقوله : ﴿ **ونفس وما سواها : فألهمها فجورها وتقواها** ﴾(٥) ، وأرشد إلى الخير وحذر من الشر ، فقال : ﴿ **قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها** ﴾(٦) ، وزاد هذه القضية وضوحا وإظهارا فقال : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾(٧) .

ثم نادى بعد ذلك فى عزة وكبرياء تليق بذاته العلية فقال : ﴿ **وقل الحق من ربكم : فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر** ﴾ ، ثم بيّن مدى رحمته بعباده فقال : ﴿ **إن تكفروا : فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا : يرضه لكم** ﴾(٨) .

وقد سئل الإمام جعفر الصادق ــ رضى الله عنه ــ فقيل له : ما بال الله يريد ثم يعاقب ؟

---

(١) سورة النحل [آية ٩٤] .
(٢) سورة الإنسان [آية ٣] .
(٣) سورة البلد [آية ١٠] .
(٤) سورة البلد [آية ٩] .
(٥) سورة الشمس [آية ٧] .
(٦) سورة الشمس [آية ١٠] .
(٧) سورة فصلت [آية ١٧] .
(٨) سورة الزمر [آية ٧] .

فقال الإمام كلمة تُكتب بمداد من الذهب ، قال : « الله أراد بنا ، وأراد منا ، فأخفى ما أراد بنا ، وأظهر ما أراد منا .. فاحتججنا بما أراد بنا ، وتركنا أما أراد منا » !

تلك كلمة حق فاصلة نوجهها إلى « المفلسين » الذين أقدموا على المخالفات الشرعية تاركين أوامر الله وطرحوها وراءهم ظهريا ، ويشربون ويلعبون ، وعلى الأعراض يعتدون وفى الحياة يعبثون ، ثم بعد ذلك يُلقون باللائمة على صفحة الغيب ..! فإذا كلمت أحدهم فى ذلك ، فلا تسمع منه إلا جدالا فى الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير !!.

إن مشيئة الله صالحة لأن تجعل الناس كلهم أمة واحدة ، والإضلال والهداية إنما يكونان على حسب استعداد العبد وسلوكه . قال سبحانه : ﴿ **فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى** ﴾[1] .

ولذا يُقال لهذا : « النادم » يوم القيامة : ﴿ **بلى : قد جاءتك آياتى ، فكذبت بها ، واستكبرت ، وكنت من الكافرين** ﴾[2] .

فيا أخى : قل لمن عصى ربه وقال إنه أراد بى هكذا .. قل له : أطلعت على الغيب ، أم اتخذت عند الرحمن عهداً ؟.. قل له : ألم يُرسل ربك إليك رسولا ، يبين لك الحلال والحرام ؟.. قل له : ألم يُنزل إليك كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ وفيه تبيان لكل شيء ؟.

قل له : ألم يهبك الله عقلا تميز به الخبيث من الطيب ؟.. ثم قل له ــ بعد ذلك ــ ألم يرفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يُفيق ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ ؟ قل له : ألم يتجاوز ربك ــ بفضله وكرمه ــ عن الخطأ والنسيان ــ وما استُكرِه الإنسان عليه ؟ قل له : ألم يفتح ربك الكريم باب التوبة ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ؟.

---

(١) سورة الليل [آية ٥] .　　(٢) سورة الزمر [آية ٥٩] .

قل له : ألم تسمع إلى قول إبليس اللعين لربه عز وجل : وعزتك وجلالك لأغوينهم ما دامت أرواحهم فى أبدانهم ، فقال رب العزة : وعزتى وجلالى لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى ؟!!

إذاً : فقوله تعالى : ﴿ **ولكن يُضل من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾[1] لا يفيد إجبار العبد على سلوك طريق الضلال ـ وذلك كما بينا فى الآيات السابقة ـ إنما المشيئة هنا مبنية على علم الله ، والعلم صفة انكشاف ، لا صفة التزام وجبر .

« إن الله تعالى فرض فرائض فأدُّوها ، ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها » !!

المساواة بين الرجل والمرأة

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[2] .

ما أعظم العدالة الإلهية ؛ وما أجلَّ قدرها ! وما أفضل الكرم الربانى وما أرفع شأنه ! وعد من الله ـ والله لا يخلف وعده ـ لمن عمل صالحا ، لا فرق فى ذلك بين الذكر والأنثى .

والعمل الصالح : هو كل ما جاء موافقا لأوامر الله ورسوله .. ولقد وعد الله هؤلاء بوعدين أحدهما : فى الدنيا ، والآخر : يوم القيامة .. أما فى الدنيا فحياة طيبة ، فيها سكينة ، وقناعة ورضا من الله ، وعن الله ، رضى الله عنهم ، ورَضوا عنه .. وأما فى الآخرة : فجزاء بأحسن ما كانوا يعملون .. والإيمان :

شرط أساسى ، فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان مبنيا على الإيمان ، قال سبحانه : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن** ﴾[3].. وتظهر ثمرة الإيمان فى الرضا بالقضاء ، والشكر على الرخاء ، والصبر عند البلاء . ولا يجوز لعبد مؤمن أن يجزع لما قضى الله . وكان داود ـ عليه السلام ـ يقول : « **اللهم إنى أسألك**

---

(١) سورة النحل [آية ٩٣] .
(٢) سورة النحل [٩٧] .
(٣) سورة النحل [آية ٩٧] .

أربعا ، وأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا . وزوجة تعينني على ديني ودنياى وأعوذ بك من ولد يكون عليَّ سيدا ، ومن مال يكون وبالاً عليَّ ويتمتع به غيرى ، ومن جار سوء : إن رأى منى خيرا أنكره ، وإن رأى سوءا نشره ، ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب » !!

فبادر يا أخى بالعمل الصالح ، لتنال الوعدين الكريمين فى الدنيا والآخرة ، وسارع بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى . ما أجمل الصلح مع الله . ألا وإن الصلح مع الله : طريق النجاة :

يا من يجيب العبد قبل سؤاله ويجود . للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالإحسان
أصبحتُ ضيفَ الله فى الرضا وعلى الكريم كرامة الضيفان
يعفو الملوك عن النزيل بساحهم كيف النزول بساحة الرحمن ؟
وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى تعفو وتصفح للعبيد الجانى
يا من إذا وقف المسىء ببابه ستر القبيح وجاد بالإحسان

فبالإيمان والإخلاص والتوحيد : تُبنى النفوس ، وبالبعد عن الرياء والنفاق والشرك : تشيّد صروحها ، وإن بناء النفوس رسالة صعبة . قام بها الأنبياء ومن نهج نهجهم من الصالحين المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ألا وإن أول لبنة فى بناء النفوس هى التوبة النصوح ، والرجوع إلى الله تبارك وتعالى ، والخشية منه فى السر والعلانية ، فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

لذلك ففى نهاية تلك المقالات من « بناء النفوس » أدعو الله أن يوفق كل قارىء أن يقف على باب الله مرددا قوله تبارك وتعالى : **﴿ يأيُّها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يوم لا يُخزى الله النبى والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شىء قدير ﴾**[1] .

(١) سورة التحريم [آية ٨] .

فاللهم أعط نفوسنا تقواها . وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها ..

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين . واحشرنا في زمرتهم يا رب العالمين .. آمين .

الطريق إلى الله

اخا الإسلام :

اشتاقت النفس بعدما اندمجت فى الفيوضات الربانية والنفحات الإلهية والاتحافات السماوية ؛ اشتاقت إلى معرفة الطريق الموصل إلى الله ، وما أعظمه من طريق ، إنه طريق قد غمرته الأضواء الكاشفة الهادئة المستبصرة المؤدية إلى الجنة ونعيمها مع ضمان السعادة فى الدارين : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ .

وهل هناك أجل وأعظم من معرفة الطريق إلى الله ، إنه ذو معالم واضحة المسالك بينة المناهج ، إنه التوبة التى تغسل النفوس من أرجاسها وأدناسها . ولنستمع معا إلى ما يقوله بعض أهل المعرفة فى مقام التوبة الذى هو أول المعالم فى الطريق إلى الله :

قال الإمام النووى رحمه الله تعالى : التوبة واجبة من كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط : أحدهما أن يقلع عن المعصية والثانى أن يندم على فعلها والثالث أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا .. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصلح توبته وإن كانت التوبة تتعلق بآدمى فشروطها أربعة هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها . فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه وإن كان (أى حق الآدمى) حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها ويجب أن يتوب من جميع الذنوب .

ومن شروط التوبة : ترك قرناء السوء وهجر الأصحاب الفسقة الذين يحببون للمرء المعصية وينفرونه من الطاعة ثم الالتحاق بصحبة الصادقين الأخيار كى تكون صحبتهم سياجا يردعه عن العودة إلى حياة المعاصى والمخالفات . والمسلم لا ينظر

---

(١) سورة الأنعام [آية ١٥٣] .

إلى صغر الذنب بل ينظر إلى عظمة الرب اقتداء بأصحاب رسول الله - ﷺ -، فقد كان أنس بن مالك - رضى الله عنه - يقول : « إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر إنا كنا نعدها على عهد رسول الله - ﷺ - من الموبقات » . قال عبد الله : يعنى بذلك المهلكات » .

ولا يقف المسلم عند التوبة من المعصية بل يتوب من كل شىء يشغل قلبه عن الله تعالى : يقول عبد الله التميمى - رضى الله عنه -: شتان بين تائب وتائب فتائب يتوب من الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب من الزلل والغفلات وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات . فمن طهر قلبه من الآثام والأدناس ، وأشرقت عليه أنوار الإيناس لم يخف عليه ما يدخل قلبه من خفى الآفات ما يعكر صفوه حين يهم بالزلات فيتوب عند ذلك حياء من الله الذى يراه .. فتوبة لا تتبعها تقوى باطلة ، وتقوى لا تظهر بها استقامة مدخولة ، واستقامة لا ورع فيها غير تامة ، وورع لا ينتج زهدا قاصر ، وزهدا لا يشيد توكلا يابس ، وتوكل لا تظهر ثمرته بالانقطاع إلى الله عن الكل واللجوء إليه صورة لا حقيقة لها فتظهر صحة التوبة عند اعتراض المحرم ، وكمال التقوى حيث لا مطلع إلا الله ، ووجود الاستقامة بالتحفظ على إقامة الورد فى غير ابتداع ، ووجود الورع فى مواطن الشهوة عند الاشتباه ، فإن ترك فكذلك وإلا فليس هنالك .

ومن المقامات القلبية المحاسبة وهى تهيئة الوازع الدينى فى النفس ، وتربيتها على تنمية اللوم الباطنى الذى يجردها من كل ما يقف أمامها عقبة فى طريق الصفاء والمحبة والإيثار والإخلاص . يقول النبى - ﷺ -: « **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى** » .. ومن حاسب نفسه لا يترك لها سبيلا إلى الاشتغال بالباطل إذ هو يشغلها بالطاعات ويلومها على التقصير مع الله تعالى خشية منه فكيف تجد سبيلا إلى اللهو والبطالة ؟

قال السيد أحمد الرفاعى - رحمه الله تعالى -:

« من الخشية تكون المحاسبة ومن المحاسبة تكون المراقبة ، ومن المراقبة يكون دوام الشغل بالله تعالى » .

روى أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج يوما من بيته يطوى بطنه على الجوع فالتقى بصاحبيه أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فعلم منهما أن أمرهما كأمره وأنهما لا يجدان قوت يومهما والتقى بهم رجل من الأنصار لم تخدعه بشاشتهم ، فعلم أمرهم فاستضافهم ، فلما وصلوا إلى منزله وجدوا تمراً وماء بارداً وظلا وارفا . فلما تبلغوا بتمرات وشربوا من الماء قال صلوات الله وسلامه عليه : « **هذا من النعيم الذى تسألون عنه** » أليس فى هذه اللفتة الكريمة من الرسول ـ ﷺ ـ نفحة ترمى إلى طبع النفس بطابع الوازع القوى والإحساس المرهف والشعور الدقيق والتبعة الكبرى والمسئولية الضخمة فى كل تصرف تهدف إليه النفس بين حين وآخر ؟.

وإن المحاسبة لتثمر الشعور بالمسئولية تجاه الله تعالى ، وتجاه خلقه ، وتجاه النفس المكلفة بالتكاليف الشرعية من أوامر ونواه ، فبالمحاسبة يفهم الإنسان أنه ما وجد عبثا وأنه لابد راجع إلى الله كما أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ: « **ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ، ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه . فاتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة** » .

ومن المقامات القلبية أيضا فى الطريق إلى الله : الخوف .

قال حجة الإسلام الإمام الغزالى ـ رحمه الله تعالى ـ: « اعلم أن حقيقة الخوف هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى المستقبل . وقد يكون ذلك من جريان ذنوب ، وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التى توجب الخوف لا محالة ، وهذا أكمل وأتم لأن من عرف الله خافه بالضرورة ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ .. وقد دعا الله تعالى عباده إلى الخوف منه وحده فقال : ﴿ **وإياى فارهبون** ﴾ .. ومدح الله المؤمنين ووصفهم بالخوف فقال : ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم** ﴾ .. وجعل الله الخوف من شروط كمال الإيمان فقال : ﴿ **وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ . ووعد الله من خاف مقامه جنتين : جنة المعارف فى الدنيا وجنة الزخارف فى الآخرة فقال : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾(1) .

---

(1) سورة الرحمن [آية ٤٦] .

وجعل الله الجنة مأوى من خاف مقام ربه : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾[1] .

ـ قال الشيخ أحمد زروق ـ رحمه الله تعالى ـ فى قواعده : « من بواعث العمل وجود الخشية وهى تعظيم يصحبه مهابة ، والخوف هو انزعاج القلب من انتقام الرب » .

وفى هذا المقام يصف سيدى عبد الوهاب الشعرانى ـ رضى الله عنه ـ السيدة رابعة العدوية بأنها كانت كثيرة البكاء والحزن . وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زمانا وكان موضع سجودها كهيئة الحوض الصغير من دموعها وكأن النار ما خلقت إلا لأجلها ، وسر ذلك الخوف إنما هو الاعتقاد بأن كل بلاء دون النار يسير وإن كل خطب دون البعد عن الله تعالى هين : وليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه ـ قال أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعالى ـ: « ما فارق الخوف قلبا إلا خرب » . وليس الخائفون بمرتبة واحدة بل هم على مراتب مختلفة . وقد صنف ابن عجيبة ـ رحمه الله تعالى ـ مراتبهم ثلاث مراتب فقال : « خوف العامة من العقاب وفوات الثواب . وخوف الخاصة من العتاب وفوات الاقتراب ، وخوف الخاصة من الاحتجاب بعروض سوء الأدب » .

ندعو الله أن يثبت خطانا على طريقه وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

---

(١) سورة النازعات [آية ٤٠] .

الطريق إلى الله

تكلمنا فى المرة السابقة عن بعض مقامات القلب فى رحلته المقدسة نحو الحق المبين وقلنا إن من آهم معالم هذا الطريق التوبة والمحاسبة والخوف . ونواصل هنا ــ بمشيئة الله تعالى ــ الحديث عن المقام الرابع ألا وهو الرجاء .

والرجاء كما عرفه الشيخ أحمد زروق هو السكون لفضله تعالى بشواهد العمل في الجميع ، وإلا كان اغترارا ... ولقد حثنا الله تعالى على الرجاء ونهانا عن القنوط من رحمته فقال سبحانه : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾[1] .

وقال تعالى مبشرا بسعة رحمته ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾[2] ، وقال تعالى فى وصف الذين يرجون رحمته : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله** ﴾[3] .. وجاء الحث على رجاء رحمة الله فى كثير من الأحاديث الشريفة منها :ــ

ما روى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ: « **والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم** » .

وعن أبى موسى الأشعرى ــ رضى الله عنه ــ، عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « **يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى** » .

وعن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « **يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه** » ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول رب أعرف .

---

(١) سورة الزمر [آية ٥٣] .

(٢) سورة الأعراف [١٥٦] .

(٣) سورة البقرة [آية ٢١٨] .

أعرف . قال : « **فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته** .. **يقول الله تبارك وتعالى** : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عمل صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾[1] .

فعلى العبد إن كان فى ريعان شبابه مقارفا للذنوب مطيعا لنفسه الشهوانية أن يغلب جانب الخوف على الرجاء . أما إذا كان فى نهاية عمره فعليه أن يغلب الرجاء كما قال الله تعالى فى الحديث القدسى : « **أنا عند ظن عبدى بى** » . وكما قال عليه ــ الصلاة والسلام ــ فى الحديث الذى يرويه جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل** » .

وإن كان العبد مقبلا على ربه سالكا طريق قربه فعليه أن يجمع بين مقامى الخوف والرجاء ، لا يغلب الخوف على الرجاء حتى يقنط من رحمة الله تعالى وعفوه ، ولا يغلب الرجاء على الخوف حتى يسترسل فى مهاوى المعاصى والسيئات ، بل يطير بهما محلقا فى أجواء صافية فلا يزال فى قرب ودنو من الحضرة الإلهية قد حقق صفة هؤلاء الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾[2] .

وليس الراجون بمرتبة واحدة بل هم على مراتب ذكرها ابن عجيبة رحمه الله تعالى إذ قال : رجاء العامة حسن المآب بحصول الثواب ، ورجاء الخاصة حصول الرضوان والاقتراب ، ورجاء خاصة الخاصة التمكين من الشهود وزيادة الترق فى أسرار الملك المعبود .. واعلم يا أخا الإسلام أنه لابد للطالب سلوك سبيل النجاة والوصول إلى الله تعالى من أن يتحقق بصفات ثلاث : الصدق والإخلاص والصبر لأن جميع صفات الكمال لا يتحلى بها الإنسان إلا إذا كان متصفا بهذه الصفات الثلاثة ، وكذلك لا تتم الأعمال إلا بها ، فإذا فارقت الأعمال فسدت ولم تنل القبول .

ولما كان الباعث على العمل الصالح والترق فى مدارج الكمال هو الصدق نبتدىء بالكلام عليه أولا : ذكر حجة الإسلام الإمام الغزالى ــ رحمه الله تعالى ــ للصدق معان ستة فقال : « اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان : صدق فى القول ،

---

(١) سورة الكهف [آية ١١٠] .   (٢) سورة السجدة [آية ١٦] .

وصدق فى النية والإرادة وصدق فى العزم وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق » .

وقد ذكر القاضى زكريا الأنصارى للصدق محلات ثلاث فقال : « الصدق هو الحكم المطابق للواقع ومحله اللسان والقلب ، وكل منها يحتاج إلى وصف يخصه : فهو فى اللسان الإخبار عن الشىء على ما هو عليه ، وفى القلب : العزم الأكيد . وفى الأفعال : إيقاعها على وجه النشاط والحب .

فإذا تحلى السالك بالصدق استطاع أن يسير بخطى سريعة نحو مراتب الإيمان العالية إذ هو القوة الرافعة والمحركة وهو الصفة اللازمة لكل مقام من مقامات السلوك إلى الله تعالى .. قال العلامة ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: إن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلى الله منازل السائرين إليه من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح ، فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه فأول مراحل السير هو صدق العبد فى إنابته إلى ربه بالتوبة النصوح التى هى أساس الأعمال الصالحة وأول درجات الكمال .

والصدق فى تهذيب النفس الأمارة يحقق النجاح الكبير فى التخلص من أمراضها وشهواتها ويطهر القلب من الخبائث حتى ينتهى إلى الإيمان الذوق الذى وصفه رسول الله ـ ﷺ ـ بقوله : « **ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا** » . والصدق فى محاربة الشيطان والتخلص من وساوسه يجعل المؤمن فى نجاة من كيده وأمان من شره كما يجعل الشيطان فى يأس وقنوط من إضلاله وغوايته .

والصدق فى إخراج حب الدنيا من القلب يحمل الإنسان على المجاهدة المستمرة بالصدق والإيثار والتعاون الخيرى ، حتى يتخلص من حبها وينجو من سيطرتها على قلبه .. والصدق فى طلب العلم تخلصا من الجهل وتصحيحا للعمل يحمل الإنسان على الاستقامة والمثابرة ، وتحمل المشاق وسهر الليالى كى

ينال منه أوفر نصيب وأكبر قسط وما نبغ العلماء إلا لصدقهم وإخلاصهم وصبرهم . والصدق فى العمل هو ثمرة العلم وغايته إذ يجعل العبد فى ارتقاء دائم ويجعل علمه سبباً فى كماله ولابد من إخلاص فى ذلك وإلا قد يدخل على السائر بعض العلل الموقفة له عن مطلوبه من حب الشهرة والسمعة والالتفات إليها . فالإخلاص فى الصدق يزيل هذه الشوائب من طريق الغاية المنشودة وهى رضاء الله تعالى ومعرفته ومحبته . قال أبو القاسم القشيرى ـ رحمه الله تعالى ـ: « الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه وهو تالى درجة النبوة » .. وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يلازموا أهل الصدق ليستفيدوا من حالهم وينتفعوا من صدقهم فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[1] .

وقد أوضح الرسول ـ ﷺ ـ أن الصدق يثمر طمأنينة القلب وراحة الفكر بينما يسبب الكذب حالات من القلق والاضطراب والشك وعدم الاستقرار ، فقد روى عن الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : حفظت من رسول الله ـ ﷺ ـ: « **دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة** » .

واعلم يا أخا الإسلام : أن من يعمر باطنه بالصدق والإخلاص تجرى حركاته وسكناته على حسب ما فى قلبه ، فيظهر بالصدق والإخلاص فى أحواله وأقواله وأعماله لأن من أسر سريرة ألبسه الله رداءها . قال العلامة القرطبى ـ رحمه الله تعالى ـ: « حق على كل من فهم عن الله تعالى أن يلازم الصدق فى الأقوال والإخلاص فى الأعمال والصفاء فى الأحوال فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضاء الغفار » فعليك أيها الأخ المسلم أن تكون صادقا فى أقوالك لأن الكذب من صفات المنافقين كما قال صلوات ربى وسلامه عليه : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان** » .

وكن صادقا فى طلب الوصول إلى الله تعالى فالمقاصد العالية لا تنال بالتشهى لذلك قيل : « لا ينال الوصول من كان فى قلبه شهوة الوصول » بل يناله بالجد والاجتهاد .. وعمر قلبك بالصدق لتنبعث منه الهمة والنشاط فى سيرك إلى الله

---

(١) سورة التوبة [آية ١١٩] .

تعالى . وكن صادقا فى موافقتك لربك أمراً ونهيا ، وفى اتباعك لرسوله – ﷺ – حتى تتحقق بالعبودية لله تعالى فهى أمنية السالكين لربهم فى جميع مراتبهم ومقاماتهم .

أما عما أدرجناه سالفا من بقية الصفات التى يجب أن يتحقق بها الطالب سلوك سبيل النجاة والوصول إلى الله تعالى فسنتحدث عنها فى حديث قادم إن شاء الله والله المستعان . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

الطريق إلى الله

تكلمنا فى المرة السابقة عن أهم الصفات التى يجب أن يتحقق بها طالب سلوك سبيل النجاة والوصول إلى الله تعالى ألا وهى الصدق . واليوم نتناول ـ بمشيئة الله تعالى ـ الصفتين الأخيرتين وهما الإخلاص والصبر ، لأن جميع صفات الكمال لا يتحلى بها الإنسان إلا إذا كان متصفا بهذه الصفات الثلاث وكذلك لا تتم الأعمال إلا بها ، فإذا فارقت الأعمال فسدت ولم تنل القبول .

تعريف الإخلاص : قال أبو القاسم القيشرى ـ رحمة الله عليه ـ معرفا الإخلاص : « الإخلاص إفراد الحق سبحانه فى الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح لمخلوق أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله تعالى . وقال : ويصح أن يقال : الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين .

وقال أبو على الدقاق رحمه الله تعالى : « الإخلاص : التوقى عن ملاحظة الخلق ، فالمخلص لا رياء له » .

وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ: « ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما » .. وقال الإمام الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ: « الإخلاص سر بين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله » .

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى ـ رحمه الله تعالى ـ: « حق المخلص أن لا يرى إخلاصه ولا يسكن إليه فمتى خالف ذلك لم يكمل إخلاصه بل سماه بعضهم رياء » .

أهمية الإخلاص فى الكتاب والسنة : لما كان قبول الأعمال موقوفا على وجود الإخلاص فيها أمر الله تعالى نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالإخلاص فى عبادته

تعليما لهذه الأمة فقال : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين** ﴾[1] . وقال سبحانه : ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له دينى** ﴾[2] وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ **فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص** ﴾[3] .

كما أمر الله تعالى خلقه أن تكون جميع عبادتهم القولية والفعلية والمالية خالصة له تعالى بعيدة عن الرياء فقال : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾[4] .. وأوضح الحق أن السبيل إلى لقاء الله تعالى يوم القيامة لقاء رضا وإنعام هو العمل الصالح الخالص لوجه الله السليم من ملاحظة الخلق ، فقال سبحانه : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾[5] .. وقد سمى الرسول ـ ﷺ ـ الرياء شركا أصغر تارة ، وسماه شرك السرائر تارة أخرى . وأخبر أن الله تعالى سوف يتبرأ من المرائى يوم القيامة ويحيله إلى الناس الذين أشركهم فى عبادته .

عن أبى أمامة قال : جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ فقال ـ ﷺ ـ: لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرات ، ويقول رسول الله ـ ﷺ ـ: لا شيء له ثم قال : إن الله عزَّ وجلَّ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه » .. وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم** » .. وعن شداد بن أوس ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : ﴿ **من صام يرائى فقد أشرك ، ومن صلى يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك** ﴾ .. وعن محمود بن لبيد قال : خرج النبى ـ ﷺ ـ فقال : « **يأيها الناس إياكم وشرك السرائر . قالوا يا رسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر** » .. وقال ـ ﷺ ـ: « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله عزَّ وجلَّ إذا جزى بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم**

(١) سورة الزمر [آية ١١] .
(٢) سورة الزمر [آية ١٤] .
(٣) سورة الزمر [آية ٢] .
(٤) سورة البينة [آية ٥] .
(٥) سورة الكهف [آية ١١٠] .

تراءوان فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » .. وعن أبى سعيد بن أبى فضالة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من أشرك فى عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك** » .

مراتب الإخلاص : قال ابن عجيبة ـ رحمه الله تعالى ـ: « الإخلاص على ثلاث درجات : إخلاص العوام والخواص وخواص الخواص » ، فإخلاص العوان هو إخراج الخلق من معاملة الحق من طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور .

وإخلاص الخواص : طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية .. وإخلاص خواص الخواص : إخراج الحظوظ بالكلية فعبادتهم تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية محبة وشوقا إلى رؤيته كما قال ابن الفارض .

ليس سؤالى من الجنان نعيما غير أنى أحبها لأراكا

وقالت رابعة : ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا فى جنتك وإنما عبدتك لذاتك .

فلو لم يكن ثمة ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار لما تأخروا عن عبادتهم وما انثنوا عن طاعاتهم لأنهم يعبدون الله لله ولأن أعمالهم تصدر عن قلب عمره حب الله وحده وطلب قربه ورضوانه بعد أن أدركوا نعمه وآلاءه وذاقوا بره وإحسانه .

واعلم يا أخا الإسلام : أن الإخلاص تصفية العمل من العلل والشوائب سواء أكان مصدرها التعلق بالخلق كطلب مدحهم وتعظيمهم والهرب من ذمهم أو كان مصدرها التعلق بالعمل كالاغترار به وطلب العوض عنه . لذا فإن أهل الهمم العالية أخلصوا دينهم لله وسمعوا نداء الله فى قلوبهم « ففروا إلى الله » فاستجابوا لهاتف الحق وقال قائلهم ملبيا له : « تركت الناس كلهم ورائى وجئت إليك » .

الصبر : عرف العلماء الصبر بتعاريف كثيرة وأهمها ما قاله ذو النون المصرى ـ رحمه الله تعالى ـ: « الصبر هو التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية وإظهار الغنى عند حلول الفقر بساحة المعيشة » . وما ذكره الراغب الأصفهانى

ـ رحمه الله تعالى ـ فى مفرداته « الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه » . وما ذكره السيد الجرجانى ـ رحمه الله تعالى ـ فى تعريفاته : « الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله » .

وللصبر تقسيمات منوعة وكلها ترجع إلى هذه الأنواع الثلاثة : صبر على الطاعات وصبر عن المعاصى وصبر على المصائب . فالصبر على الطاعات هو الاستقامة على شرع الله والمثابرة الدائمة على العبادات المالية والبدنية والقلبية ومواصلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على ما يعترض ذلك من أنواع الابتلاء وصنوف المحن لأن من ورث عن رسول الله ـ ﷺ ـ دعوته وجهاده لابد أن يصيبه ما أصاب رسول الله ـ ﷺ ـ من تكذيب ومحاربة وأذى . قال تعالى حكاية عن لقمان يوصى ابنه : ﴿ **يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك** ﴾ .. وقد أقسم الله أن الناجين هم من تحققوا بصفات أربع : الإيمان والعمل الصالح والنصح للأمة ثم الصبر على ذلك فقال تعالى : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾(1) .

والصبر على المعاصى : هو مجاهدة النفس فى نزواتها ومحاربة انحرافها وتقويم اعوجاجها وقمع دوافع الشر والفساد التى يثيرها الشيطان فيها . قال تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾(2) . وكان من المفلحين ﴿ **قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى** ﴾(3) .

وأما الصبر على المصائب : بما أن الحياة دار امتحان وابتلاء فإن الله تعالى يختبر إيمان عباده ـ وهو أعلم بهم ـ بأنواع المصائب ويمحص المؤمنين بصنوف المحن كى يميز الخبيث من الطيب والمؤمن من المنافق . قال تعالى : ﴿ **آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ سواء أكانت هذه المصائب فى المال أو فى البدن أو فى الأهل .

قال تعالى : ﴿ **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم** ﴾(4) .

---

(1) سورة العصر [آية 1 ـ 3] .
(3) سورة الأعلى [آية 13] .
(3) سورة الأعلى [آية 13] .
(4) سورة آل عمران [آية 186] .









المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين